روايات عبير

آن ويل

شاطئ العناق

www.elromancia.com
مرمورية

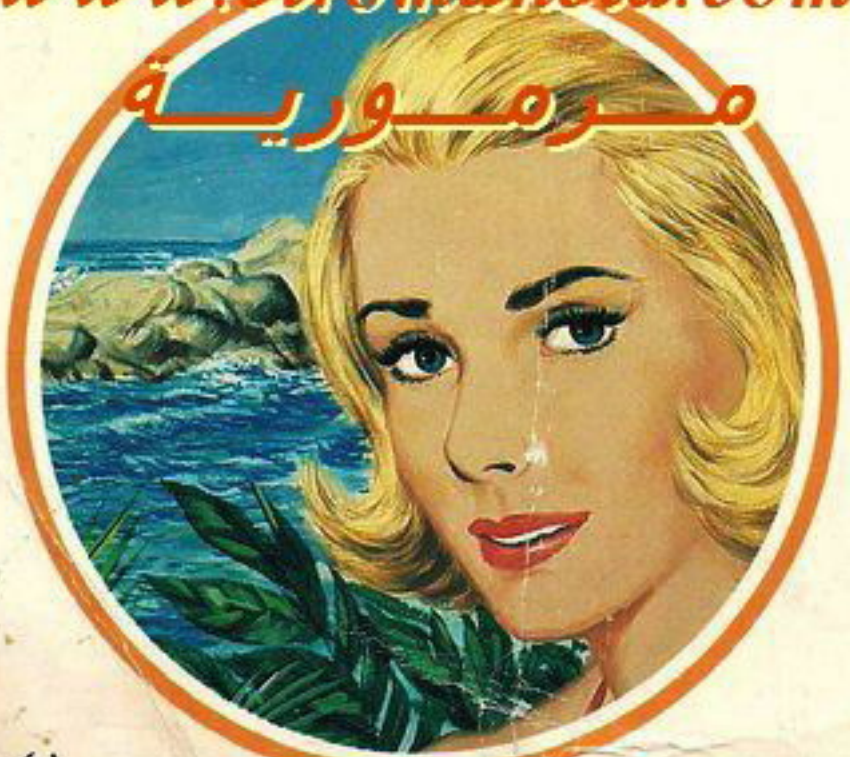

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 41

شاطئ العناق

الى أيّ حدّ يمكن للعاشقة ان تنتظر؟ اذا كان الحب يقاس بالسنوات والظروف فأي حبّ هو هذا الذي يربط شارلوت اليافعة بليام البالغ الخبرة الواسع التجربة؟

وسط شواطىء البحر الكاريبي وفي جزيرة سوليفان المهجورة التقيا وكان هو كالصخرة تتدفق عليها أمواج العاطفة من قلب شارلوت الملتهب فلا يتحرك. غير انه انشق كالبركان حين عادت اليه بعد غياب لتجد الجزيرة الثانية جميلة كالجنة. وليام يفتح ذراعيه بشوق كبير.. فهل تبقى شارلوت في جزيرتها المفضلة ام تقرر العودة الى لندن حيث خبرت نوعاً آخر من الحياة؟

لبنان	٧ ل.ل.	الكويت	٧٠٠ ف	اليمن	٨ ر	السودان	٨٠٠ م
سورية	٨ ل.س	الامارات	٩ د	تونس	١ د	U.K.	£ 1
الأردن	٥٠٠ ف	البحرين	٩٠٠ ف	ليبيا	٧٠٠ د	France	F 10
العراق	٥٠٠ ف	قطر	٩ ر	المغرب	٨ د	Greece	Drs 120
السعودية	٨ ر	عمان	٩٠٠ ب	مصر	٨٠٠ م	Cyprus	P 1

١ ـ لا يسعني إلا أن أتذكر أن تلك الأشياء كانت الأشياء الأثيرة الى نفسي.

شكسبير «ماكبث»

كان الجميع يحبون شارلوت مارتن وفقاً لأعمارهم، ذكوراً أو إناثاً، مفتونين بسلوكها المعصوم من الخطأ، أو بقوامها المشوق، أو باستعدادها لأن تعير ثيابها الثمنية لكل من في حاجة الى ثوب خاص لموعد خاص.

كان أصدقاؤها يتفاوتون ما بين صبية صغار ومتقاعدين وحيدين. والجميع وضعوا ثقتهم في شارلوت. فساعي البريد يحدثها عن إصابته بمرض الدوالي. والمسؤولة عن نظافة المكتب تصف لها بتفصيل مرهق ولاداتها السبع. أما البقال الأرمل فكان يطلب نصيحتها بشأن ابنته العنيدة المراهقة. بل كان الغرباء أحياناً يسكبون مشكلاتهم في أذنها المتعاطفة!

لكن يا ترى هل لدى شارلوت مشكلات خاصة بها؟ لو كان الرد بالايجاب فهي لم تذكرها لاحد. فافترض معظم الناس أن الطريق مفروش بالورد أمام فتاة جميلة مثلها في الحادية والعشرين من عمرها، تشغل وظيفة مرموقة وتقتني مفكرة مزدحمة بالمواعيد.

الذين عرفوها لفترة طويلة أدركوا تدريجاً أنهم يكادون لا يعرفونها، وأنها برغم ما تبدو عليه من روح اجتماعية منشرحة، متحفظة للغاية. فحتى أنيتا موراي، صديقتها الحميمة، لم تكن تطلع على مشاعر شارلوت الدفينة ـ أو على سبب علاقاتها القصيرة المخيرة مع الرجال الذين تعرفت بهم.

كانت أنيتا وشارلوت تتقاسمان شقة في لندن. وقد عاشتا معاً حتى الليلة التي كشفت فيها شارلوت عن ذاتها.

كانتا في غرفة نومها، تتبادلان أطراف الحديث، وشارلوت تحزم حقيبتها. الوقت شتاء، غير أن الملابس التي تناثرت على فراشها الآن كانت ملابس صيفية كلها جديدة ـ فيها عدد من السراويل القصيرة ـ الشورتات ـ وأثواب الاستحمام وأثواب الشاطىء، وأخرى بلا أكمام بينما وضعت فوق خزانتها جواز سفر ونظارة شمسية وأنبوبة ضخمة من الكريم الذي يضفي على البشرة سمرة خفيفة تحميها من أشعة الشمس. وكانت أنيتا مسترخية أمامها على الفراش الآخر، ترقبها وهي تلف صنادلها في ورق شفاف، فبادرتها قائلة:

«يالك من فتاة هادئة رصينة، لو كنت مكانك لكنت الآن في شدة الانفعال. فكري في الأمر! غداً في مثل هذا الوقت ستكونين هناك».

مرّت لحظة ولم تجب شارلوت. ثم قالت بصوت خفيض:

«أنا لا أشعر بالهدوء... بل أشعر... بالفزع».

هبت أنيتا جالسة مرددة كلمة شارلوت:

«فزع؟»

لم تكن شارلوت من النوع الذي ينزع الى المبالغة. فهي لم تكن لتستخدم هذه الكلمة في وصف حالة بسيطة من الاضطراب العصبي الذي يحدث في الدقائق الأخيرة قبل السفر.

قضمت شارلوت شفتيها لدى رؤية التعبير على وجه أنيتا. وهي تتأرجح ما بين إحساس بالندم على اعترافها التلقائي، وإحساس بالراحة لأنها أقدمت على هذا الاعتراف. فلأسابيع منذ أن حجزت تذكرة سفرها وهي في حال من القلق والتردد المتصاعدين. ومرّات أحست بالرغبة أن تشرك رفيقتها في ورطتها، لكنها تراجعت في كل مرة. أما الآن وليلتها الأخيرة في انكلترا، ولم يبق على سفرها سوى ساعات تواجه بعدها التزامها النهائي، أحست برغبة جارفة لتصرح بما في نفسها الى شخص تثق به.

«ماذا تعنين يا شارلوت؟»

«حسناً... هذه ليست عطلة عادية».

«لماذا تقولين ذلك؟»

في فترة أعياد رأس السنة، عندما ذكرت شارلوت أنها ستأخذ إجازتها في

شهر شباط/فبراير وتسافر الى جزر البحر الكاريبي فكرت أنيتا أنها تمزح. فقضاء العطلات الشتوية في جزر الهند الغربية أمر قاصر على الأغنياء، فقط وليس أمراً متاحاً للفتيات العاديات - حتى لو كن مثل شارلوت شقفن طريقهن في العمل من موظفة آلة كاتبة الى سكرتيرة خاصة ذات كفاءة عالية تتقاضى راتباً مجزياً.

عندما أدركت أنيتا أن تلك لم تكن دعابة، جاء ردّ فعلها الثاني بصورة شك في أن صديقتها ربما لن تتحمل بنفسها نفقات عطلتها هذه.

فشارلوت تستطيع، اذا أرادت أن تتناول عشاءها في المطاعم الفاخرة غير مرّة في الأسبوع الواحد. فإلى جانب شكلها الجميل الذي يؤكده ذوقها الرفيع في الملبس، كان هناك شيء من الغموض يكتنفها، الأمر الذي يثير فضول الرجال. وكانت وظيفتها تجعلها على صلة بالعديد من رجال الأعمال الموسرين. كان معظمهم متزوجين، ولكن ذلك لم يمنعهم بالضرورة من أن يطلبوا منها أن تلتقي بهم خارج العمل. كان البعض الذي تستفزه محاولة سبر أغوارها العميقة، والذي لا يثنيه رفضها المهذب، يمضي الى أبعد الحدود في محاولة لسحق مقاومتها.

وهكذا فكّرت أنيتا بشيء من الاستياء أنه ليس مستحيلاً أن يكون قد نجح في النهاية رجل جذاب مثابر في أن يقنع شارلوت بأن تترك لنفسها العنان، ولكنها لم تفصح عن هذا الظن لصديقتها خشية أن تجرح إحساسها. وكان هناك احتمال آخر ـ وان بدا بعيداً ـ وهو أن صديقتها نجحت في أن توفر نفقات تلك العطلة. فهي لم تكن مبذرة مثل أنيتا. أثناء الأسبوع الذي تدير فيه شارلوت المنزل، كان يتبقى فائض من المال تشتريان به مشروباتهما المحببة أو شريط تسجيل لأغنياتهما المفضلة. كانت حذرة جداً عند اختيار أصناف جديدة من أدوات التجميل. صحيح انها تشتري الثياب الجيّدة ولكن اذا كانت فقط بحاجة الى استبدال ثوب جديد بآخر استغنت عنه من المجموعة المنتقاة بعناية في خزانتها. ونظراً لجودة خامتها وعنايتها الفائقة بها، كانت ثيابها تبقى صالحة للاستعمال أضعاف أضعاف المدة التي تتحملها ثياب أنيتا الرخيصة التي كانت تشتريها بشكل عشوائي تأسف عليه دائماً فيما بعد.

«حسناً - استمرّي في الحديث».

استحثتها أنيتا قائلة وهي لا يسعها إلا أن تسأل نفسها إذا كانت شكوكها على وشك أن تتأكد بأن شارلوت، كما خمنت من قبل، لن تكون بمفردها في هذه الرحلة الباهظة التكاليف.

«كان يجب أن أخبرك من قبل - فهي قصة طويلة معقدة».

«أوه يا إلهي، لقد كنت محقة». هكذا حدثت أنيتا نفسها. فمنذ سنوات عندما كانتا تتحدثان عن فتاة أخرى أتعستها علاقة عاطفية طائشة، اتفقتا على أنه من الغباء التورّط مع الرجال المتزوجين، أو حتى اقامة علاقات مع العازبين منهم. فرغم أنه من المفروض أن فتيات من وطنهما قد تحررن تماماً هذه الأيام، إلا أن مثل هذه العلاقات تنتهي دائماً بشكل سيء للفتيات إن لم يكن للرجال أيضاً.

قالت أنيتا بصوت مسموع:

«ليس من الضروري أن تذهبي اذا كنت قد عدلت عن رأيك. فمن الأفضل أن تتراجعي الآن في اللحظة الأخيرة من أن تستمري في شيء لست واثقة منه».

نظرت إليها شارلوت بعينين متكدرتين قائلة:

«هذا هو ما يجعل الأمر أكثر صعوبة. فقد كنت واثقة من الأمر. لم يكن لدي أدنى شك. كان يجب أن أقدم على ذلك، مهما بدا جنوناً للآخرين. ولكن بمجرد أن انتهيت من كل الترتيبات، بدأت أقلق... أتساءل ما إذا كنت قد أخطأت».

كتمت أنيتا أنيناً داخلها وقالت:

«لماذا لا تفصحين عن الأمر لي؟ فالحديث عن مشكلة يساعدك أحياناً على رؤيتها في ضوء جديد. أتريدين فنجاناً من القهوة؟

وبعد القهوة قدمت أنيتا سيكارة لصديقتها. ولم تكن شارلوت تدخن. ولكنها أخذت السيكارة كانت يداها ترتعشان وهي تضعها بين شفتيها.

حدثت أنيتا نفسها قائلة وهي تشعل لها السيكارة، يا إلهي، إنها في حالة غريبة. فرغم أنهما في السن نفسها إلا أن أنيتا كانت دائماً تعتبر صديقتها أكثر منها نضوجاً واتزاناً. ولكن، في تلك اللحظة لم تكن شارلوت تبدو الموظفة المتزنة الثابتة. كانت قد غسلت وجهها من المساحيق، فبدا شاحباً للغاية. وكان شعرها الأشقر الطويل، الذي اعتادت أن تشبكه فوق رأسها بالدبابيس وقت العمل، مسترسلا الآن على كتفيها. وبدت وهي تنفث السيكارة بلا خبرة، صغيرة،

ضعيفة للغاية هشة الشخصية.

بدأت حديثها قائلة:

«لن تكون هذه هي المرة الأولى التي أذهب فيها الى جزر الهند الغربية فلقد نشأت هناك في الواقع».

«ماذا؟ ولكني كنت أعتقد أنك ولدت في انكلترا. لقد قلت لي ...»

«نعم، ولدت في لندن ولكن والدي سافرا بنا الى الخارج وأنا في الرابعة من عمري. وعدت عندما كنت في الثامنة عشرة. لم أقل لك ذلك لأني لم أكن أود الحديث عن هذه الفترة من حياتي».

«لكن لماذا؟»

ظلت شارلوت تغدو وتروح في الغرفة في قلق وقالت:

«عندما جئت الى لندن كنت أحس بادىء الأمر أني تعيسة وحيدة، زهدت الحياة. فلندن تصبح مكاناً مرعباً إذا كنت تعيشين وحدك ولست معتادة على العيش في مدينة كبيرة. المرة الأولى ضاق صدري في قطار تحت الأرض وشعرت بذعر حقيقي. كنت أشعر أحياناً، أنني لو سقطت ميتة في أحد الشوارع، سيدوسني الناس بأقدامهم ولن يهتم أحد بي. فجميعهم مشغولون بالتزاحم بالمناكب لقضاء مصالحهم الخاصة».

«أعرف ماذا تعنين».

قالت أنيتا بمرارة. فقد كانت هي يوماً وافدة جديدة على لندن، وتذكر جيداً أنها احتاجت الى بعض الوقت لتتلمس الطريق.

واستطردت شارلوت قائلة:

«وأخيراً أدركت أن عليّ أن أستجمع نفسي، فعزمت على ألاّ أفكر فيما مضى وأن أركز على حياتي الجديدة. وهكذا لم أكن أتحدث عن الماضي مطلقاً، محاولة ألا أفكر فيه كثيراً. ولكني عزمت أن أعود الى هناك يوماً. وبمجرد أن حصلت على وظيفة مناسبة بدأت أوفر جزءاً من راتبي كل أسبوع. كنت أعلم أن عليّ انتظار وقت طويل قبل أن أوفر المال اللازم لتلك الرحلة، أعطيت لنفسي أربع سنوات... ليس فقط لأوفر المال اللازم ولكن لأنضج وأغيّر نفسي».

توقفت عن الحديث، رأتها أنيتا ترتجف، ثم استطردت قائلة:

«عندما تكونين في الثامنة عشرة، فان أربع سنوات تبدو كأنها حكم بالسجن المؤبد. في بادىء الأمر اعتدت أن أشطب من أيام الرزنامة كلّ يوم يمرّ، فالأسبوع بدا كأنه شهر. وبعدئذ، وبعد أن أنهيت تدريبي على أعمال السكرتارية، لم تصبح الأمور بهذا السوء. كنت أعمل بجد في وظيفتي الأولى وبدأت أنشىء صداقات، وبعد أن قضيت عاماً أدركت أنني لم أكن تعيسة ولكني لم أكن سعيدة. جاء وقت، قبل أن ألتقي بك، ظننت فيه أن بوسعي أن أكون سعيدة. ظننت أنني وقعت في حب شخص ما. ولكن هذا الحب لم يدم - كما أنه لا يدوم في سائر التجارب. فبصورة ما، وبعد فترة أجدني دائماً أبتعد عن الناس - أقصد الرجال. وكأنه... كأنه ليس بوسعي أن أبدأ من جديد قبل أن أتأكد أن ما حدث من قبل قد انتهى - انتهى تماماً».

«اسمعي يا عزيزتي، كل هذا يبدو مخيراً لي. أليس من الأفضل أن تعودي الى البداية».

«البداية؟»

رددت شارلوت تلك الكلمة بشكل غامض. ثم تنهدت وجلست وكأنها أحست بالتعب.

«أعتقد أن الأمر بدأ عندما ذهبت الى الجزيرة للمرة الأولى. ليتني لم أذهب الى هناك!»

قاطعتها أنيتا قائلة:

«ما هي تلك الجزيرة وأين هي؟»

«إنها جزيرة سوليفان. كنت معتادة أن أذهب الى هناك كثيراً...»

٢ ـ أبدو كمن يتحرك في عالم الأشباح. وأحسّ نفسي وكأني طيف من حلم.

تينسون «الأميرة»

«نراك وقت العشاء، الى اللقاء يا عزيزتي».

كانت شارلوت تمسك في يدها سلة غدائها وفي اليد الأخرى قناع الغطس وزعانفه، قبّلت وجنتي أمها ثم ركضت عبر الممر نحو مرفأ الزوارق.

كانت في السابعة عشرة من عمرها تقريباً، لم تعد طفلة، ولكنها لم تصبح امرأة بعد. من ثلاث سنوات مضت كانت نحيفه بشكل أثار قلق هيلين مارتن. والآن، عندما تذهبان الى المدينة، يحدق الرجال في ابنتها في طريقة تثير قلقاً من نوع آخر.

أما شارلوت فلم تكن تعي اهتمامهم هذا، وبالتأكيد لم تبادله. فاذا وضعنا في الاعتبار المقاييس الجسدية ـ خاصة اذا كانت ترتدي نظارة شمسية داكنة ـ يمكن بسهولة أن نعتبرها فتاة في التاسعة عشرة أو العشرين من عمرها. ولكن عندما تخلع النظارة فانك ترى في عينيها الرماديتين براءة الطفولة وصراحتها وعلى المستوى العاطفي. كانت لا تزال فتاة غير معقدة، غير خجلة.

أطلقت شارلوت زفرة ارتياح وهي تستقلّ زورق العائلة الذي كان اليوم تحت تصرفها، ولم تسألها أمها عن مقصدها. فإن رافاس وهيلين مارتن لم يكونا أبوين يصعب إرضاؤهما. وبشكل عام كانا يشجعان أبناءهما الخمسة على روح الاستقلال وحبّ المغامرة.

وبرغم ذلك، كان لدى شارلوت شعور غير مريح بأنهما لن يقرّا رحلاتها الى تلك الجزيرة الغامضة المهجورة، المشهورة بالنحس...جزيرة سوليفان.

فحتى لو نجحت في اقناعها بأنه ليس هناك ضرر في ذهابها، لن يبقى الحال على ما هو بمجرد معرفتها. فالآخرون سيودّون الذهاب الى هناك بدورهم. ولن تبقى الجزيرة ملكها بعد ذلك... مكانها السري... مملكة سحر خاصة بها.

كانت جزيرة سوليفان الصغيرة تبعد قليلاً عن ساحل جزيرة التوابل الجميلة التي انتشرت فيها اسرة مارتن من زمن بعيد، وهي إحدى جزر الهند الغربية. كان بيتهم على الساحل بالقرب من قرية للصيادين، يبعد عن عاصمة الجزيرة حوالى نصف ساعة بالمواصلات العامة - وان كان استخدام كلمة عاصمة قد يكون مضللاً بالنسبة الى مدينة تعدادها لا يتعدى سبعة آلاف نسمة، وهي ايضاء ميناء لسفن الخطوط الملاحية في موسم الشتاء، لكنها لا تقارن بالميناء الجديدة في باربادوس ذات العمق الكبير، أو بأرصفة ميناء دولي صاخب مثل بورت أوف سبين في ترينيداد.

كان على شارلوت أن تبحر عدة أميال بطول الساحل لتصل الى الجزيرة مارة بمستوطنتين صغيرتين للصيادين. كانت احداهما موطن السيدة العجوز التي عرفت منها السبب وراء إثارة جزيرة سوليفان هذا القدر من الذعر بين السكان المحليين.

كانت تعرف دائماً أن جزيرة سوليفان مكان سيء، مكان ملىء بالشر. ولكن كان من الصعب أن تستكشف بالتحديد سبب ذلك، فلأكثر من عشرين سنة لم يجسر أحد أن يطأها. السكان الذين يعيشون على مقربة من جزيرة سوليفان قوم بسطاء يؤمنون بالخرافات ويخافونها لدرجة دفعتهم الى تحاشي الكلام عنها، أو حتى مجرّد التفكير فيها. في بادىء الأمر قوبلت تساؤلاتها بتبويخ وذعر من السكان الذين كانوا أحياناً يرسمون اشارة الصليب في عصبية طلباً للأمان.

وكان من الطبيعي أن يؤدي كل هذا الى شحذ حب استطلاعها. وأخيراً، بعد أسابيع من الملاطفة، نجحت في إقناع العجوز ماري المسكينة العمياء بأن تكشف لها تاريخ الجزيرة.

كانت الجزيرة محاطة بتشعبات مرجانية خطيرة، وهناك ممر واحد يتسع لمرور زورق الى البحيرة المحيطة بالجزيرة شرط أن تقوده يد ماهرة. وكان هذا المدخل الوحيد الى الجزيرة يقع ناحية البحر بعيداً عن أعين سكان الساحل.

كان الوقت ظهراً عندما كانت شارلوت، وقد وضعت يداً واثقة على الدفة، تعبر الممر المائي للمرّة الرابعة عشرة منذ قامت بأول زيارة للجزيرة منذ عام. ولو كان ذلك ممكناً، لقضت شارلوت معظم أوقات فراغها في الجزيرة. ولكن لم يكن الزورق تحت تصرّفها الخاص طوال يوم كامل مرّات كثيرة.

تذكّرت شارلوت وهي ترسو على شاطىء الجزيرة وقد ارتدت لباس بحر كان لونه ذات يوم في زرقة سماء البحر الكاريبي لكنه أصبح الآن أبيض بفعل أشعة الشمس والمياه المالحة، تذكّرت المرة الأولى التي وطأت فيها قدماها أرض الجزيرة.

فلاستكشاف مكان بمثل هذه السمعة السيئة بمفردها، حتى لو كان ذلك في وضح النهار، كانت شارلوت في حاجة الى قدر كبير من الشجاعة. فحتى الآن، لا تسعى الى قضاء ليلة في الجزيرة، برغم زياراتها المتعددة لها، وبرغم أنه يمكنها الآن أن تتجول في الجزيرة بدون أن تتلفت وراءها.

سمعت أباها يقول مراراً أنه ليست هناك قوى خارقة للطبيعة، وأن أكثر الحوادث غموضاً لها تفسير منطقي، إذا اهتم الناس بالبحث عنه، عندما كانت شارلوت في السابعة من عمرها، كان على والدتها أن تلازم الفراش ثلاثة أشهر قبل أن تلد أخاها الأصغر. وخلال تلك الفترة، جاءت امرأة، طيبة ومرحة لكنها أمية تدعى فيوليت لتتولى مهام الطهي والتنظيف وهي مازالت حتى الآن درة محببة الى نفوس أسرة مارتن. وبدون علم راقاس مارتن عمدت فيوليت الى امتاع أبنائه بالقصص الشعبية في الهند الغربية عن الأشباح ومصاصي الدماء.

وتركت قصص فيوليت المرعبة أثراً عميقاً في نفس شارلوت الصغيرة. وكانت تستمع الى تلك الأقاصيص بعينين محملقتين.

لكن الآن عندما تحملق فيوليت عينيها وتبدأ الحديث عن سكان الليل، تأخذ شارلوت في الضحك وفي اغاظتها وفي أعماقها، لم تستطع أن تقنع نفسها بأن تلك الأقاصيص هراء تماماً.

وهكذا وجدت نفسها في زيارتها الأولى للجزيرة تشق طريقها عبر النباتات الكثيفة التي تحجب الرؤية بين قلب الجزيرة والسفن والزوارق المارة وهي في

حالة من الذعر الكبير.

عندما أخبرتها ماري العجوز أن هناك منزلاً في الجزيرة، تخيلته شارلوت على غرار بيتهم الصغير الساحلي، ولم تكن تتوقع أن يتبقى منه الكثير بعد مرور عشرين عاماً على هجره.

بعد أن شقت شارلوت طريقها وسط سياج من ثمار الكروم المتدلية، وجدت نفسها على مشارف أرض منبسطة. وأطلقت شهقة دهشة لما رأت وتوقفت لحظة تحدق في انبهار فهو ذلك السر الذي كشفت عنه الآن زيارتها للجزيرة. فمنزل جزيرة سوليفان لم يكن حطاماً متداعياً من الأخشاب العفنة تكسوها النباتات المتسلقة التي تنمو في انطلاق في ذلك الجو الاستوائي. حقاً، كانت أشجار الغابة تطوّق الدرابزين وتتسلق الأعمدة الطويلة في بهو الطابق الأرضي. بل ان هذه النباتات اقتحمت بعض الحجرات.

بعد أن اعتادت شارلوت نسبياً الاحساس الغريب الذي راودها وهي تقف وحيدة في مكان لم تطأه قدم انسان ولم يسمع فيه صوت منذ زمن بعيد يعود الى ماقبل مولدها، كلفت نفسها بعمل «بطولي» هو وضع حدّ لزحف نباتات الغابة على المنزل. وتمكنت مستعينة بمنجل حاد ان تتخلص من الحاجز النباتي الذي يسدّ الباب الرئيسي. كانت مهمتها الآن أن تنظف الدرج الملتوي الذي يتوسط البهو الواسع.

ففي وقت خلال سنوات الاهمال، سقطت شجرة في فناء المنزل بفعل إعصار، فاخترقت بعض فروعها النافذة التي تتوسط الدرج لتصبح فيما بعد نواة لنموّ طفيلي تحوّل الى مانع لا يمكن تخطيه بين الطابق الأرضي والطابق العلوي.

صعدت شارلوت الى الطابق العلوي متسلقة أحد الاعمدة الحجرية. وفكّرت بعد ذلك أنه اذا زلّت قدمها وكسرت قد تعاني أياماً عدة من الفزع والألم قبل أن يستكشف أحد زورقها الراسي في الممر المائي المؤدي الى الجزيرة.

ظلت طوال نصف ساعة تقطع الفروع المتشابكة المنبثقة من جذور الشجرة حتى لمع جسمها بعدما أن تصبب عرقاً وتساقطت قطرات العرق على ذراعيها وظهرها. إذ أنه لم تقو أية نسمة ملطفة على اختراق هذا الساتر الخانق طاقة شارلوت المتدفقة.

جلست على الدرج تستريح لبضع دقائق. وبينما كانت تفكر في الأشخاص الذين عاشوا في هذا المنزل من قبل سمعت صوتاً يتحرك جعلها تشهق وتكتم أنفاسها. أحست طوال خمس عشرة ثانية تقريباً بخوف لم تحسه في حياتها من قبل. خدر يسري في رأسها استحال جسمها الحار الى كتلة ثلج وأخذ قلبها يخفق خفقات بطيئة. ثم استعادت قدرتها على التفكير السليم. لم يكن من بالخارج شبحاً. إنه إنسان، أو حيوان. لا، لايمكن أن يكون حيواناً. إنه إنسان. لكن من؟ بالتأكيد أنه ليس من أهالي المنطقة! أهو غريب؟ شخص لا يعرف شيئاً عن الجزيرة؟

وبينما كانت تلك الأفكار تومض في ذهنها سمعت وقع أقدام في الشرفة. انتظرت شارلوت في حذر، وقد زايلها الخوف، لترى الشخص الآخر الذي يتحرّى بدون وعي منه الجزيرة المحرمة.

كان الرجل الذي ظهر، بعد لحظات في البهو السفلي، وهي جالسة على رأس السلم، غريباً. لون بشرته كان بنياً كعامة سكان جزر الهند الغربية، لكنه كان أوروبياً. انطباعها الأول عنه، أنه طويل القامة، في مثل سن والدها تقريباً ـ ذلك النوع من الشخصيات الذي يصفه أبوها بقوله «انه شخص قذر المظهر». وبنت شارلوت حكمها هذا، على أساس أنه في حاجة الى حلاقة ذقنه وأنه عابس الوجه.

للوهلة الأولى لم يرها، كان هذا أمراً غريباً بالنسبة اليها، فقد كان ذلك السلم هو أول شيء لحظته عند دخولها البهو. والواضح أنه صمم على أن يصوّب العين إلى أعلى نحو سقف الطابق الأول، حيث كانت تعلق في هذا المكان، على الأرجح، ثريا ضخمة. ولكن كان الباب المؤدي الى غرفة الاستقبال أول مالفت نظر الرجل. فسار نحوه.

تمنّت شارلوت أن يدخل الغرفة. فلو فعل، تسللت خلسة هابطة الدرج وحاولت أن تخرج بدون أن يلحظها. فهي لا تعرف لماذا أحست أنه من الأفضل أن تفعل ذلك. ظلّ واقفاً مكانه عدة لحظات، بدت لانهاية لها. وأخيراً، تحرّك نحو الظلمة التي تظلل أكبر غرفة في المنزل، وإن كان يتخللها بعض الضوء المتوهج.

التقطت شارلوت بهدوء وخلسة المنجل وبدأت تهبط الدرج بخطوات

جانبية. بلغت آخر الدرج، وفجأة ظهر من جديد. حملق كل منهما في الآخر دقيقة. والآن بعدما رأته وجهاً لوجه، لم يعد لدى شارلوت أدنى شك أنه لم يكن هذا النوع من البشر الذي يأمل المرء أن يلقاه في مكان كهذا تضيع فيه هباء صرخة الاستغاثة. لقد حذرتها أمها من أن الرجال ليسوا كلهم مثل أبيها، وأن بعضهم لا يمكن الوثوق به، بل يجب تحاشيه لم تكن السيدة مارتن واضحة بشأن ما يمكن أن يقدموا عليه، اذا ما أخطأ المرء ووثق بهم. ورغم أن شارلوت لم تلق بالا الى كلام أمها في ذلك الوقت، لكنها تذكرت ذلك التحذير الآن. وأدركت بحدسها أن هذا الرجل هو من ذلك النوع الذي عنته أمها. فهي لم تر من قبل ذلك التعبير الذي علا وجهه وهو خارج من غرفة الاستقبال، ولا تستطيع أن تعرفه الآن. ولكنها كانت نظرة جعلتها تندفع عبر البهو، منطلقة خارج الباب لتلقي بنفسها وسط الغابة وكأن شيطاناً يطاردها.

بلغت الشاطىء لكنه لحق بها. وأحست انه يحاول الامساك بها، راوغته ولوحت بالمنجل في وجهه. ثم وجهت إليه ضربة كان من الممكن أن تبتر ذراعه لو أصابت ولكنها لم تمسه. وبينما كان السلاح يقطع الهواء، قفز جانباً، ثم استدار واندفع نحوها. دار صراع قصير بينهما ثم جذب المنجل من يدها وقذف به بعيداً. وبعد لحظة وجدت وجهها منبطحاً على الرمال، بينما انحنى الرجل بجانبها، ممسكاً برسغيها خلف ظهرها. لم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً سوى أن تلتقط أنفاسها بعدما أحست بالتعب وتملكها الفزع. فحتى لو كان لديها مزيد من القوة لتقاومه، لكان ذلك بدون جدوى. وفجاة أحست بيديها وقد تحررتا. دحرجها على ظهرها بلطف قائلاً:

«لا تفزعي، لن أمسك بأذى».

فتحت عينيها ونظرت اليه. للحظة تصوّرت أن الرجل الذي أمامها الآن هو رجل آخر. فلم يكن هذا هو الوجه الذي أفزعها منذ قليل في المنزل، بل بدا ودوداً ضاحكاً ـ يصغر عشر سنوات عما رأته منذ قليل.

جلس على الرمال قائلاً:

«أنا آسف اذ اضطررت أن أكون فظاً معك، ولكنك كدت تقسمينني نصفين، أنت في حاجة الى شيء تشربينه. انتظري سأحضر لك شيئاً».

وبينما كان يبتعد جلست شارلوت وبصقت الرمال من فمها. كان هناك الآن في المجرى المائي زورقان، زورقها وزورق سباق قرمزي اللون. جلست ترقبه وهي ترتعش وهو يخوض في المياه ناحية زورقه.

وعاد بالزجاجة وسترة صوفية قائلاً:

«من الأفضل أن تضعي هذا على كتفيك ولو لعشر دقائق. فلقد تلقيت صدمة قوية. إن أسنانك تصطك».

وبعدما لاحظ أنها ترتعش الى حدّ يمنعها من القيام بأي ردّ فعل طبيعي وضع السترة على كتفيها قائلاً وهو يضع الزجاجة أمام شفتيها:

«والآن خذي جرعة قوية من هذا».

كان رافاس مارتن يمنع أولاده من المشروبات بصرامة. لذا أحست شارلوت بالاختناق وهي تبتلع المشروب، كادت تنهار على الرمال مرة أخرى لو لم يساعدها ذلك الرجل الذي أخذ يربّت على ظهرها بقوة لتلتقط أنفاسها. وعندما استعادت قدرتها على التنفس، تناول هو مشروبه. كان من الواضح أنه معتاد عليه فقد تناول جرعة كبيرة من هذا المشروب وكأنه يشرب عصير الليمون.

«أتشعرين بتحسن؟»

أومأت برأسها إيجاباً. أحست بسترته وقد وضعتها على كتفيها، خفيفة، ولكنها غاية في النعومة تشع دفئاً. وبادرته قائلة:

«ماذا تفعل هنا؟»

«أستكشف المكان. سمعت أشياء عن هذا المكان أثارت فضولي لرؤيته».

«ماذا سمعت؟»

«أن هذا المكان لم تطأه قدم انسان منذ زمن بعيد. يبدو أن من أبلغني ذلك اخطأ. من أنت؟ وماذا تفعلين هنا؟»

«أنا شارلوت مارتن. وأعيش هنا».

اتسعت عيناه قائلاً:

«هنا؟»

«كلا، ليس هنا، ولكن في البلدة المجاورة لهذا المكان».

مدّ يده مبتسماً يقول:

«مرحباً بك يا شارلوت مارتن. اسمي ليام... ليام هاملتون».

«أهلاً بك».

أدركت وهما يتصافحان أنها لم تر من قبل شخصاً لديه مثل هاتين العينين الزرقاوين الداكنتين.

«أهذا كل ما سمعت؟»

«حسناً، كلا، كان هناك المزيد، ولكني أعتقد أنه قيل لجذب اهتمامي. فهم لم يقولوا شيئاً محدداً، بل الكثير من التلميحات المثيرة والقليل من الحقائق. قررت أن أحضر وألقي نظرة، فلم يكن لديّ ما أفعله اليوم أفضل من ذلك. ومادمت تأتين الى هنا فمن المؤكد أن المكان ليس به شيء».

«أنا الانسان الوحيد الذي يجيء الى هنا. فلا يجرؤ أحد من أهالي المنطقة على ذلك».

«تعنين أن هناك شيئاً مرعباً بالنسبة الى الجزيرة؟»

«من المفروض أنها مسكونة بالأرواح؟»

«حقاً؟ أهذا ركضت بعيداً؟ هل تصوّرت أنني شبح؟»

«كلا، ولكنني لم أسترح لمنظرك».

ابتسم قائلاً:

«أنت فتاة لا تختارين الألفاظ اللطيفة! أعتقد أن شكلي بدا شعثاً بعض الشيء».

حك ذقنه قائلاً:

«لم أتصوّر أنني إذا أهملت حلاقة ذقني يوماً فسيجعلني ذلك أبدو شريراً».

«أنت لا تبدو كذلك... الآن. ولكن عندما خرجت من غرفة الاستقبال...»

«قلت أنه من المعتقد أن الجزيرة تسكنها الأرواح. أرواح من؟»

«أرواح من عاشوا فيها منذ سنوات مضت... أرواح أسرة سوليفان».

«هل أفهم من هذا أنهم ماتوا جميعاً؟ ماذا حدث بالضبط؟»

«كان السيد سوليفان رجلاً هرماً وكان غنياً... أعتقد أنه ملك الملايين وكانت زوجته تصغره كثيراً، ولم ترغب في الزواج برغم جمالها. لكن أسرتها أجبرتها على ذلك لأن أباها كان مديناً له بالمال وكان بوسعه أن يحطمه. من المؤكد أنه كان رجلاً فظيعاً. وغيوراً عليها حتى أنه اشترى هذه الجزيرة وبنى هذا المنزل وأبقى زوجته سجينة هنا. ثم بدأ يسيء معاملتها، بطبع حاد يصرخ ويلعن، بل يضربها

أحياناً. وفي النهاية جنّ وقتلها. كان سيقتل ابنه أيضاً لكنه تمكن من الهرب واختبأ حتى جاء احد أقاربه واصطحبه الى انكلترا. لكني لا أعتقد أنه تخطى تلك الواقعة. تصور لو أنك رأيت أباك يطلق الرصاص على أمك! لا يمكن لصبي أن ينسى هذا أبداً أليس كذلك؟»

«كلا، أتصوّر أنه لا يمكنه ذلك. لكن من قال لك كل هذا؟»

«امرأة عجوز اعتادت أن تخدم في بيت سوليفان. كانت في المنزل عندما حدثت تلك الواقعة. كانت تهبط الدرج عندما سمعت طلقة رصاص ورأت الصبي الصغير يركض في البهو وخلفه والده يحمل في يده بندقية، لكن عندما رأى ماري ـ الخادمة ـ لم يخرج وراء الصبي الى الحديقة بل دخل مكتبه وانتحر».

«أعتقد أنك لا تشاركين أهل المنطقة خوفهم من هذا المكان؟»

«كلا، ليس الآن. في بادىء الأمر كنت أخاف. ولكن رغم ما يمكن أن يحدث ليلاً لم أحسّ بشيء مخيف أثناء النهار. أما في الليل، فمن المعتقد أن الناس رأوا أنواراً وسمعوا صرخات. ومن الأرجح أن هذا من صنع خيالهم مع ذلك فأنا أخاف المكوث في الجزيرة بعد غروب الشمس. أعتقد أن هذا يجعلني في حماقة السكان المحليين تماماً».

«بالعكس. أنا أعتقد أنك شجاعة بشكل غير عادي لتأتي الى هنا وحدك نهاراً، لماذا تأتين الى هنا؟»

«المنزل يبدو جميلاً للغاية. ومن العار أن نترك الغابة تحطمه.

ثم أفضت اليه بحلمها الدفين وهي لا تدري أن هذا المشروب جعلها كثيرة الكلام بشكل يتنافى مع شخصيتها:

«سأشتري هذه الجزيرة يوماً وأعيش هنا. سأنظف المنطقة الفاصلة بين المنزل والشاطىء من الأشجار وأحولها الى حديقة جميلة. سيصبح هذا المنزل أجمل منزل في جزر الهند الغربية. سيسعى الى شرائه الاميركيون الأثرياء الذين يأتون الى هنا في الشتاء. ولكنني لن أبيعه حتى لو عرضوا عليّ ملايين الدولارات».

«مقارنة بأسعار المنازل في الجزر الكبرى، أعتقد أنك ستضطرين الى دفع الكثير في مقابل ذلك».

«أوه، كلا، سأشتريه بثمن بخس. فالأثرياء يشترون مكاناً لا يستطيعون أن

بجدوا فيه من يعمل على خدمتهم».

«ألا تظنين أن السكان قد يتغلبون على خوفهم إذا ما كانت الأجور عالية؟»

هزت رأسها نفياً قائلة:

«منذ سنوات قليلة حدث شيء جعلهم أكثر خوفاً. مرّ من هنا يخت خاص ظن ركابه أن جزيرة سوليفان غير مأهولة وقرروا شواء اللحم على الشاطىء. ولكنهم لم يعلموا كم كان الممر ضيقاً ولم تكن لهم دراية بالتيارات المائية الخفية وأشرفوا على الغرق. أخذ سكان القرية هذه الواقعة كدليل على أن الأرواح لا تريد أن يقترب أحد من الجزيرة. لقد كنت محظوظاً إذ تمكنت من اجتياز الممر بأمان. من الأفضل أن تسير أمامي في طريق العودة حتى أتمكن من إنقاذك اذا تعرضت للخطر»

«أتتمنين أن أتعرّض لشيء كهذا؟»

«كلا، ابداً، ولكنك لن تقول لأحد أنك جئت الى هنا... أو أنني كنت هنا، أليس كذلك؟»

«كلا، لن أقول لأحد».

«أتعدني بذلك؟»

«نعم أعدك».

«معي بعض الطعام في الزورق. هل تريد أن تأكل شيئاً؟ هناك ما يكفي لاثنين».

«أشكرك كثيراً».

أحست بالدوار وهي تتجه الى البحر. وقبل أن تأتي بالسلة من الزورق غطست رأسها في الماء كالبطة لتتخلص من هذا الاحساس».

وعندما عادت وهي تسوي شعرها الطويل بادرها قائلاً:

«كنت تبدين كالحورية عندما غطتك المياه حتى وسطك».

مسحت وجهها بيديها وهي تجلس بجواره قائلة:

«كنت أتمنى أن أكون حورية بحر. فأنا أحب العيش في كهف في جزيرة. هل أنت في عطلة؟ لا يبدو عليك أنك سائح».

«حقاً؟ لماذا؟»

توقفت عن حلّ سلة الطعام ورمقته بنظرة فاحصة محاولة تحديد مبررها وراء حكمها هذا.

فالسّياح على وجه العموم يرتدون ثياباً جديدة أنيقة، اشتروها خصيصاً لعطلتهم، وجميعهم تقريباً بلا استثناء يحملون آلات تصوير. ولكن هذا الرجل لا يبدو مهاجراً من شتاء الشمال، ليس فقط لأنه بحاجة الى حلاقة، أو لأنه يرتدي بنطلوناً قديماً من الجينز وحذاء رخيصاً للشاطىء مصنوعاً من القماش.

كان من الصعب تصنيف هذا الرجل في فئة معينة. لم يكن حتى بوسعها أن تخمن سنه. فبنيانه بنيان شاب، نحيل رشيق، أكثر قوة مما تكشف عنه حركاته المتراخية. كان وجهه يبدو صغيراً أيضاً عندما يبتسم. ولكن خطوطاً ظهرت حول عينيه لم ترها من قبل لدى شخص يقلّ عن الخامسة والثلاثين من عمره وشعره الداكن المتموّج خطه الشيب فوق أذنيه. وقالت:

«لا أعلم... لكنك لا تبدو كسائح وهذا كل شيء».

«تلك رائحة طيبة».

قال لها ذلك وهي تفتح غطاء الترموس لتنبعث منه نكهة لذيذة.

لحسن الحظ كان هناك دورق آخر من عصير الفاكهة المثلج. وبذا أصبح لديها فنجانان من البلاستيك استخدمتهما ككوبين. ملأت الكوب الكبير بحساء سرطان البحر الساخن قائلة:

«انها ساخنة. فلا تحرق لسانك. تناول ما تريد من الخبز».

قال لها وقد وضعت أمامه بقية الطعام:

«هل تتناولين وحدك عادة كل هذا الطعام؟»

«نعم ـ لكن لا تقلق فنحن نتناول وجبتنا الأساسية في المنزل عند غروب الشمس. ولذا يمكنك أن تقاسمني هذا بكل سرور».

ابتسم قائلاً:

«لم يكن هذا ما اعني. فمعظم الفتيات النحيلات يعشن على ثمار الليمون الهندي وأوراق الخس».

«أوه! حسناً لا يمكنني التخلص من نحافتي».

كانت شارلوت اعتادت سماع صوت أمها وفيوليت يستحثانها على

الطعام، ومع أنها استسلمتا، كما يبدو، لنحوها كأمر واقع، ظلت تفكر في أنها نحيفة، خاصة اذا ما قارنت نفسها مع أختها فلافيا الممتلئة الجميلة.

رفع حاجبه قائلاً:

«لا يمكنني أن أصفك بأنك نحيفة يا عزيزتي».

كانت نبرة صوته، ونظرته اليها، نظرة تقييم معجبة متأنية، ومناداته إياها بكلمة عزيزتي، كل هذا جديد على شارلوت، جديد ومثير بشكل غريب في آن. فطريقة نشأتها المتشددة وطبيعتها القانعة عملتا على تأخير تلك اللحظة، التي تحس فيها، كفراشة حبيسة، برغبة قوية لخلع رداء طفولتها وبدء مرحلة جديدة من حياتها. لكن عندما قطب ليام هاملتون عينيه الزرقاوين الداكنتين، ونظر إليها كأنها فتاة ناضجة جميلة، أحدث أول شق في هذا الغلاف. لم يخطر في بالها أن جاذبيته وإعجابه قد يكون فيهما زيف، فهي تعرف الكثير عن مخاطر البحر ولكن القليل عن الأشخاص الخطرين.

بعد أن تناولا طعامهما بادرته قائلة:

«أنت لم تر المنزل جيداً. تعال دعني أريك إياه».

«ألا يمكننا أن نستريح قليلاً بعد الغداء».

«هل أنت متعب؟ أنا لست متعبة».

وقف بتكاسل ثم تبعها قائلاً:

«حسناً، سآتي معك».

«أمل أن تراه في الصيف وقد توهجت أزهاره. خلف المنزل أشجار ذات أوراق مذهبة. أما تلك النباتات المتسلقة التي تحيط بالأعمدة فتأتي أزهاراً بوقية برتقالية اللون. وبينها أيضاً نبات الجهنمية وأنا أنوي تشذيبها لكني لن أزيلها تماماً».

«هل كان للجزيرة اسم آخر قبل أن تشتريها أسرة سوليفان؟»

«نعم، كانت تدعى جزيرة المانغو. اسمها ولاسيما باللهجة المحلية له رنين حزين يذكرني بأشياء تعسة حدثت منذ زمن بعيد، حروب جرت في الزمان الغابر».

«هل هناك مكان لزوج في خططك للمستقبل».

«زوج؟»

رددت الكلمة من بعده بذعر فقال:

«حسناً، أعتقد أنك تستمتعين بوقتك جيداً بما لا يسمح لك التفكير في الاستقرار. لكنني لن آخذها كقضية مسلّم بها أن يشاركك شريك حياتك حماسك هذا. ربما يفضل العيش في مكان أكثر عصرية وحداثة».

«ألا تحب أن تعيش هنا؟»

«ربما، اذا كان معي شخص مثلك يمسك بيدي عندما تظهر الأشباح في الليل!»

مرة أخرى أحست بالاثارة والارتباك. لم يكن لديها شك الآن في أنه يعتقد أنها على الأقل في عمر فلافيا، كانت تعرف في أعماقها، أن والديها لن يوافقا على مثل هذا الرجل. ولكنها كانت تستلطفه وأحست فجأة برغبة في أن تكون أكبر سناً.

بادرها متسائلاً بعد أن دخلا المنزل:

«أتأتين الى هنا دائماً».

«مرة كل شهر تقريباً. وهذه هي المشكلة، فكلما شذبت النباتات نمت من جديد. امكث ساكناً لحظة. وقل لي إذا كنت تحس أن المنزل تسكنه الأرواح».

فعل كما طلبت منه، لم يقطع الصمت المطلق سوى حفيف سحلية في مكان ما وسط النباتات المتسلقة.

همست قائلة:

«حسناً، ماذا ترى؟»

خفض صوته قائلاً:

«أنت لا تنتظرين مني أن أتفعل بالكائنات الروحية بينما أنا في حضرة شقراء جميلة ترتدي رداً بحر أليس كذلك؟»

ضحك ثم جذبها اليه لم يكن هذا العناق مشبوب العاطفة كتلك العناقات التي تصفها قصص الجيب التي تهربها فلافيا الى المنزل بين حين وآخر لتقرأها في سريرها عندما لا يكون هناك احتمال أن يباغتها أبوها. وبعد لحظات رفع ليام رأسه صائحاً:

«يا إلهي! أهذه هي المرة الأولى؟»

«نعم».

«ما عمرك؟»

قالت شارلوت بصدق متأصل خاصة عندما تواجه بسؤال مباشر:

«ست عشرة سنة... سبع عشرة تقريباً».

أطلقها من بين ذراعيه وأخذ يضحك:

«ماذا يضحكك؟»

تساءلت في حيرة وخيبة أمل، بل في غضب أيضاً:

«ألديك فكرة كم أبلغ أنا من العمر؟»

هزت رأسها نفياً:

«عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، كنت أنت في المهد. يعلم الله أنني لست رجل مبادئ، لكنني أقف عند حد عناق فتيات المدارس الصغيرات. الأفضل أن أوصلك الى المنزل، وأحذر عائلتك حتى تلاحظك بشكل أكثر صرامة يا طفلتي. تعالي معي!»

«لا يمكنك أن تفعل ذلك!»

«طبعاً يمكنني».

«ولكنهم لا يعرفون أنني أتي الى هنا. ما من أحد يعرف ذلك. فهذا سرّ ولو قلت لهم سيمنعونني».

«كان يجب أن تفكري في ذلك من قبل».

كان مستحيلاً أن تدخل معه في جدل أو تستعطفه بينما هو يستحثها على السير وسط النباتات. ولكن عندما وصلا الى الشاطىء ارتخت قبضته على يدها وتمكنت من جذبها.

«ولكنك وعدتني! عاهدتني ألا تقول لأحد».

«لم أكن أعرف حينذاك كم أنت صغيرة».

«ولكن ما علاقة هذا بذاك، فالوعد وعد».

«كلا، إذا كنت قد حصلت عليه بناء على مظاهر كاذبة. أنت تعلمين أنني ظننتك أكبر سناً، أليس كذلك؟»

«نعم، لكني لا أرى أهمية لسني. أراهن أنك لم تكن لتثير هذه الضجة لو كانت فلافيا في مكاني، وهي لم تتعد التاسعة عشرة من عمرها».

«هناك فارق كبير بين التاسعة عشرة والسادسة عشرة يا صغيرتي شارلوت... أنا لا أعرف من تكون فلافيا، لكنها اذا كانت في التاسعة عشرة فلا شك أنها عرفت العناق وأنها تفوقك إدراكاً».

«إنها اختي، ولم يقبلها أحد من قبل. فأبي لا يسمح لها بالخروج مع الفتيان».

«لماذا؟»

«يقول انها مازالت صغيرة».

«صغيرة حتى التاسعة عشرة؟ حسناً دعينا من فلافيا. أنا قلق بشأنك أنت. من المؤكد أن والديك نبّهاك لتحذري الأغراب، خاصة الرجال».

ذكرته قائلة:

«أخذت حذري في البداية».

أضاءت عينيه لمعة ذكرى فقال:

«الى أقصى حد! ألا ترين أن هناك تناقضاً بعض الشيء بين محاولتك بتر ذراعي قبل الغداء، وبين أن تدعيني اعانقك؟»

«أنا لم أدعك... أنت لم تستأذنني، كيف كان بوسعي أن أمنعك؟»

قال بهدوء وقد ائسم تعبيره بالجدية مرة ثانية:

«كيف إذاً كنت ستمنعينني لو اخترت الحصول على ما هو أكثر من العناق؟»

صعدت الدماء الى وجهها الذي لوحته الشمس وهي تقول:

«أنت لست على هذه الشاكلة».

«ماذا يجعلك متأكدة هكذا؟ ألأنني لا أتحدث والطعام في فمي، وأنطق الكلمات بطريقة صحيحة؟ أم لأنه يبدو عليّ أنني أغتسل بانتظام وإن كنت لا أحلق دائماً؟ إذا كانت تلك هي مقاييسك فستنتظرك صدمات قاسية قبل أن تكبري».

«ليست هذه هي مقاييسي، وأنا لم أقصد هذا».

«ماذا كنت تقصدين إذاً؟ وماذا يجعلك تثقين بي؟»

«أنا، أنا لا أستطيع أن أشرح لك هذا. لكني عرفت... وكنت على حق».

«اعتمدت يا صغيرتي على الحظ أكثر من الحكمة».

ظلت واقفة مكانها دقائق عدة تقاوم رغبة غريبة في البكاء ثم لحقت به قائلة:

«أرجوك يا ليام... لا تقل لأبي. لن أحتمل إذا منعني من المجيء الى هنا بعد

الآن».

«مجيئك الى هنا ليس مأموناً. فلنفرض أنك أخطأت التقدير وأحدثت فجوة في زورقك وأنت تخترقين هذا الممرّ؟ ما من أحد سيكون هنا لينقذك. حتى لو أنك لويت كاحلك فقط فان هذا ستكون له عواقب وخيمة في مكان مهجور ولن يفكر أحد في البحث عنك هنا. هناك أكثر من سبب يحتم معرفة أهلك برحلاتك».

«أوه، لماذا جئت؟ ستفسد كل شيء الآن. لماذا لا تهتم بشؤونك فقط؟»

«اذا رأيت طفلاً رضيعاً يحبو وسط الطريق العام، هل ستتجاهلينه؟»

«تلك مقارنة ظالمة. أنا أستطيع أن أعني بنفسي».

«برهنت لتوك أنك لا تستطيعين ذلك يا أيتها الصغيرة العنيدة».

وضع يداً على كتفها ورفع وجهها نحوه بالأخرى قائلاً:

«ربما من الأفضل حتى تفهمي أن أعطيك مثالاً عما يمكن أن يحدث».

ضغط على كتفيها بأصابعه بينما انسلت يده اليمنى خلف ظهرها. وبرغم أنه أفزعها في بادىء الأمر فان خوفها منه الآن تقلص الى مجرد خوفها من أن ينفذ تهديده ويبلغ والديها.

تحوّل غضبه الآن الى اهتمام لا إرادي بما بدا عليها من سكينة ثم قال:

«غيّرت رأيي، فربما يكون من الأجدى أن ألجأ الى أسلوب تربية عتيق وأضربك على مؤخرتك».

تراجع قليلاً ووضع يديه في جيبيه قائلاً:

«أنت صغيرة جداً على الأسلوب الأول، وكبيرة على الأسلوب الثاني، سأترك الأمر لوالديك. بمجرّد أن نبتعد عن الجزيرة، ستأتين في زورقي ويمكننا أن نسحب زورقك. هيا بنا... ولا تلجأي الى أي خدعة».

ظلا صامتين معظم الطريق. وعندما اقتربا من خليج هورتينسيا قالت بجفاء:

«أنا أقطن في الخليج التالي».

ولدهشتها خفف سرعة الزورق حتى يتمكن من وقف المحرّك. ثم قال:

«حسناً، هنا سنفترق».

أضاء وجهها وقالت:

«أتقصد أنك لن تأتي معي الى المنزل».

«غيّرت رأيي».

«أوه، ليام، شكراً لك».

لمعت عيناها وهي تقول تلك الكلمات. بل كادت تحتضنه».

لم تفكر أن تسأله عن سبب تراجعه إلا بعد أن عادت آمنة الى زورقها.

انطلق وقال بشكل غامض لحظة افتراق الزورقين:

«ستكتشفين ذلك فيما بعد، الى اللقاء».

اتجهت صوب الدار وهي تحسّ بالحيرة إزاء ما تعنيه كلماته تلك، وتسأل نفسها ما إذا كانت ستراه مرة ثانية.

هبط الليل عندما كانت أسرة مارتن تنتهي من وجبتها المسائية، وخفض الجميع رؤوسهم عندما كان رافاس مارتن يردد صلاة المائدة. وبعد أن رفعت شارلوت وفلافيا بقايا الطعام عن المائدة، حملتا الأطباق الى المطبخ الذي كان في مبنى منفصل عن المنزل. وبرغم أن فيوليت لم تكن تعارض إن تتركا مهمة غسل الأطباق لها حتى الصباح، إلا أن أباها لم يكن يسمح بمثل هذا التواني. فهو لا يوافق على تشغيل الخدم في مهام يمكن للمرء أن يقوم بها بنفسه، ويرى أن الاحتفاظ بخادمة وسط أسرة بها فتاتان ناضجتان تشاركان زوجته في الواجبات المنزلية أمر غير ضروري بل مؤسف أيضاً.

كانت هيلين مارتن قلماً تعارض زوجها، ولكن بعد مرضها الذي جعل استخدام فيوليت ضرورياً، أصرّت على الاحتفاظ بها، ليس فقط مراعاة لمصلحتهم ولكن أيضاً لأنها كانت تعلم أن فيوليت بحاجة الى هذا العمل. كانت هيلين تحسّ أحياناً أنه بدون صحبة فيوليت المرحة لم تكن لتقوى على تحمّل الضغوط التي يفرضها عليها تزمت زوجها القاسي. كانت تحب زوجها، ولكنه لم يكن رجلاً سهل المعاشرة.

وبمجرد أن وصلت الفتاتان الى المطبخ، وأصبحتا بعيدتين عن سمع من في المنزل، انطلقت فلافيا بدون تفكير:

«لن تتصوري ما حدث اليوم».

أثناء العشاء، كانت شارلوت مستغرقة في التفكير في أحداث يومها حتى أنها لم تستشف أي أثر لحماس مكبوت في سلوك شقيقتها.

«سأذهب الى حفل راقص!»

«حفل راقص؟»

رددت شارلوت هذه الكلمات بدون أدنى تعبير. فلم تذهب أي منهما الى حفل راقص على الاطلاق. لأنهما لا تختلطان اجتماعياً مع نوع الاشخاص الذين يقيمون حفلات راقصة.

«كنت أتمنى أن يكون لدي شيء لطيف أرتديه، لكني أعتقد أن ثوبي الأزرق سيكون مناسباً فجون يقول إن الحفل لن يكون رسمياً. أوه، كنت أتمنى أن تلتقي به يا تشارلي. إنه جذاب للغاية».

«أين التقيت به؟»

«في القرية. كان يتسكع وحده، ولكنه هنا مع مجموعة من السياح تطوف البحر في يخت. إن يختهم يرسو بالقرب من سولت بوينت. أعتقد أنه يخت كبير».

«ما موعد هذا الحفل؟ تعرفين أن أبي لن يسمح لك بالذهاب».

«الليلة، وأنا لن أستأذن أبي. سئمت من معاملتي كطفلة. أريد أن أهو قليلاً مثل باقي الفتيات. بمجرد أن يخلد الجميع الى النوم، سأنسل من النافذة».

«فلافيا، من المستحيل أن تفعلي ذلك! اذا عرف أبي سيغضب كثيراً، أنه...ولا أعرف ماذا يمكن أن يفعل».

«لن يعرف، كيف سيتسنى له ذلك؟ هو يأتي الى غرفة نومنا بعد أن نذهب الى النوم».

«افترضي... افترضي أن البيت شبّ فيه حريق. حين ذاك سيكتشف الأمر»

«أوه، لا تكوني ساذجة يا تشارلي. لن يشبّ حريق في البيت. في كل حال أنا لا أرتكب جريمة. إذا لم يكن أبي سخيفاً بعض الشيء لما اضطررت للتسلل خارج المنزل».

«فلافيا! كيف تقولين هذا!»

«لأن هذه هي الحقيقة، وأنت تعرفينها. أنا لا أقول أنه فقد صوابه بالفعل ولكنه ليس شخصاً طبيعياً. فلولا أمي ماكنا حصلنا على أي قدر من الحرية. انها لا توافق على أفكاره الغريبة. قد لا تقول هذا، لكني أعرف أنها لا تتفق معه. هي استمتعت بوقتها عندما كانت في مثل سني. لم يمنعها أبوها من العمل أو الخروج

مع الفتيان واستخدام أدوات التجميل. أما أبي فيكرر أن مكان المرأة هو بيتها. ولكن كيف لي أن أتزوج بينما ليس مسموحاً لي أن ألتقي بالفتيان؟»

«سيسمح لك بالخروج مع شخص مهذب».

«ولكن جون شخص مهذب بالفعل. إن مفهوم أبي عن الشخص المهذب هو ألا يتناول المشروبات، ولا يدخن، ولا يرقص، ولا يقبل أية فتاة إلا إذا كانت خطيبته. ومثل هؤلاء الفتية لا يوجدون الآن، وان وجدوا فأنا لا أريد واحداً منهم».

عندما عادتا الى المنزل، كانت أمهما تحيك بينما كان أبوهما ينتظر عودتهما ليقرأ لأولاده كعادته دائماً في الفترة ما بين العشاء ووقت النوم. كان الكتاب الذي يقرأه لهم الآن بعنوان سلوك الحياة.

حين كانت هيلين ترمق وجه ابنتيها لم تكن لتنخدع بما يظهر عليهما من تركيز. فقد كانتا ترقبان والدهما ولكن لا تستمعان اليه.

كان هناك وقت، عندما كانتا أصغر، لم تحسا بشيء غير عادي أو محافظ في أسلوب حياتهما، كانتا حين ذاك تستمعان مشدوهتين الى صوت أبيهما العميق المسرحي وهو يقرأ لهما القصص، مثل قصة ديفيد كوبرفيلد أو قصص كبلنغ.

ولكنه اخيراً عمد إلى قراءة كتب ذات مضمون فلسفي لا تلطفه الأحداث أو المغامرات. كان الصبيان يتململون بينما لجأت الفتاتان الى أحلام اليقظة. بل أن هيلين نفسها كانت تجد أفكارها سارحة.

عندما تزوجا كان رافاس يعمل ناظر مدرسة. وبعد مولد شارلوت بقليل ورث ميراثاً غير متوقع. فقرر مغادرة انكلترا، ليبحث عن مكان يستطيع فيه هو هيلين أن يهربا من ضغوط مجتمع تتصاعد فيه المادية، ويبنيان سوياً مدينتهما الفاضلة. ولأنها كانت تحبه ولا تأبه إلا بسعادته، تجاهلت هيلين اعتراضات أهلها وأصدقائها. فيالها من راحة أن تراه مرة ثانية في حالة معنوية مرحة، ولذلك كانت على استعداد لأن تتبعه الى أي مكان.

وهكذا قدما الى جزر الهند الغربية. وطوال عشر سنوات لم يحدث أي صدع جوهري في سعادتهما. كانت تشعر بالوحدة أحياناً، فقد كان رافاس يرفض

الاختلاط مع بقية المستوطنين الأوروبيين، ولكن مناخ الجزر المثالي، مع مناظرها الخلابة عوضها الى حدّما عن هذا النقص أثناء تلك الفترة نشر رافاس عدداً من الكتب الأكاديمية عن تاريخ الجزر، وكان دخل هذه الكتب كافياً لتغطية النفقات المعتدلة لحياتهم في الكاريبي.

بدأت هيلين تقلق عندما بلغت الفتاتان سن المراهقة. تلقتا تعليمهما على يد أبيهما في المنزل. كانتا على الدرجة نفسها من التعليم مثل الأطفال الذين يلتحقون بالمدرسة إن لم تكونا أفضل. ورغم أن رافاس كان يؤمن بتعليم المرأة فانه يعارض بشدة توظفها الذي كان في رأيه يتعارض بالضرورة مع دورها التقليدي القيم كزوجة وأم. وأعلن عزمه على أن يبقي الفتاتين في المنزل حتى تتزوجا ولم تنجح حجج هيلين في جعل آرائه أكثر اعتدالاً.

«لكن ماذا سيصبح من أمرهما إذا حدث لنا شيء قبل أن تتزوجا؟»

«هذا افتراض غير محتمل يا عزيزتي. فأنا أتمتع بصحة جيدة وأتوقع أن أحيا لسنوات مقبلة كثيرة».

«حمداً لله اننا انتهينا من هذا».

قالت فلافيا وقد تنفست الصعداء وهي تأوي الى حجرة نومها مع شارلوت. فأسرة مارتن تخلد الى النوم في ساعة مبكرة وتستيقظ مع الفجر.

«يمكنني الآن أن أستعد للحفل».

«فلافيا، لا تذهبي... أرجوك... لا تذهبي».

«تشارلي، لا تقلقي».

وقفت أختها على أطراف أصابعها ومدت يدها لتسحب من فوق خزانة الملابس صندوقاً كرتونياً أفرغت محتوياته على الفراش.

تساءلت شارلوت في دهشة:

«من أين جئت بهذا؟»

«كنت أشتريتها واحدة تلو الأخرى على مراحل بعيدة. كنت أعرف أنه ستحين الفرصة لأستعملها عاجلاً أم آجلاً».

تناولت فلافيا مرآتها الصغيرة المعلقة على الحائط وأسندتها على مجموعة من الكتب. ثم أحضرت صورة فوتوغرافية منتزعة من إحدى مجلات الأزياء التي لا

يرونها إلا عند ذهابهم الى طبيب الأسنان. كانت صورة لوجه فتاة، أما الكلمات التي كتبت تحت الصورة كانت تقول البشرة هذا الشتاء شاحبة، العينان واسعتان بأهداب كثيفة. الشفتان مغريتان. تلك هي السمات الأساسية لوجهك في السهرة هذا الموسم.

«ما من شيء يجعلك تبدين شاحبة هكذا».

«كلا، ولكنني أستطيع أن أحاكي عينيها، كما ان إصبع أحمر الشفاة الذي لديّ هو من اللون الذي تستخدمه... اسكتي يا شارلوت فأنا أريد أن أركز».

جلست شارلوت القرفصاء على فراشها ولم تتكلم إلا بعد أن انتهت اختها من التزين.

«في أية ساعة ستعودين؟»

«لا أعرف. ليس قبل منتصف الليل، وربما بعد ذلك».

«كوني حذرة فيما تشربين».

نصحتها شارلوت بذلك وقد تذكرت كم أصبحت متحررة بشكل غريب بعد أن ابتلعت جرعة واحدة من ذلك الشراب...

ولكن فلافيا لم تكن مصغية إليها ودمدمت قائلة وهي تنظر الى صندلها:

«أوه، انظري كم الساعة الآن! جون سيكون في انتظاري. الى اللقاء يا تشارلي. لا تقلقي سأستمتع بوقتي وسأقص عليك كل شيء في الصباح».

ولكن شارلوت لم تتمكن من أن تمنع نفسها من القلق، ولم يكن مجرد خوفها من انفضاح الأمر هو الذي جعلها في قلق وتوتر. فهي من وقت لآخر تلمح هذا النوع من الناس الذين يطوفون البحار في يخت كبير فخم، ولذا كان لديها شك غير مريح من أن فلافيا قد تجد في الحفل محنة أكثر مما تجد متعة.

كانت تأمل في ألا تظهر نساء الحفل ازدراءهن لثوب فلافيا الذي حاكته لها أمها أو لطريقتها الساذجة في التزين.

لم يكن قد مضى على ذهابها أكثر من ساعة عندما ارتعدت شارلوت حين ومض خيال عبر عتبة النافذة المضاءة بشعاع القمر.

«فلافيا! لم أتوقع عودتك قبل ساعات».

تسللت فلافيا النافذة ودخلت الغرفة لترقص على الفراش وتنفجر باكية.

«ماذا حدث؟ أوه، اخفضي صوتك، ستوقظين أمي وأبي».

دفنت فلافيا وجهها في الوسادة، بينما كان جسمها كله يرتعش بنشيج مكتوم. وعندما وضعت شارلوت يدها على كتفها، أشاحتها بعيداً، ورفعت رأسها لتنفجر في صوت مخنوق:

«ابعدي عني! دعيني وشأني. إن هذا نتاج غلطتك».

«أنا؟ ماذا فعلت؟ عم تتحدثين؟»

قالت بحدة وقد نسيت أن تخفض صوتها:

«كنت تتظاهرين بالقلق لذهابي الى الحفل. بينما لم تنبسي ببنت شفة عما فعلت. أليس كذلك؟ لم تحذريني من أنك سردت تاريخ أسرتنا بالكامل على شخص غريب عنا تماماً. ماذا تظنين كان شعوري عندما سألني ذلك الرجل المتوحش ما اذا كنت أختك. جعلتني أظهر كالبلهاء أمام الجميع؛ لم أشعر بمثل هذا الذل من قبل! فللمرة الأولى في حياتي كنت سأستمتع بوقتي، وقد حطمت كل شيء!»

وأمام تخبطها بين الغضب والاحباط أسلمت نفسها لموجة ثانية من البكاء.

٣ ـ انها فتاة بلا دروس ولا مدرسة ولا خبرة، وهي سعيدة بهذا. انها ليست عجوزاً بعد، لذا يمكنها أن تتعلم.

شكسبير « تاجر البندقية »

صاحت شارلوت مستحثة أختها:

«لقد استيقظوا. فهناك شخص قادم. اسرعي! ادخلي في الفراش».

برغم ضيقها، لم تكن شارلوت بحاجة الى ترديد هذا الكلام مرة ثانية، وبسرعة البرق كانت فلافيا تحت أغطية الفراش. وبالكاد كان هناك وقت لتقفز شارلوت في فراشها قبل أن ينفتح الباب.

لم تكن أمها هي التي جاءت لتحدق فيهما وقد رقدتا ساكنتين بصورة غير طبيعية بدون أدنى حركة. فتحت شارلوت عيناً واحدة لترى أخاها الصغير وقد وقف فوق رأسها فأطلقت زفرة ارتياح!

«كيث! ماذا تفعل هنا؟».

«سمعت أحداً يبكي. ماذا هناك؟»

«بالتأكيد كنت تحلم. فلافيا نائمة، وأنا لا أبكي».

«ولكنني سمعت بكاء. أنا واثق من ذلك».

«هراء. عد الى فراشك».

نهضت شارلوت من فراشها وساقته أمامها الى غرفة الصبية.

كانت تحب كلّ اخوتها، ولكن كيث كان حملها الوديع. كان أخاها المفضل. فمولده واكب المرحلة في نموها حين أصبحت ناضجة بالقدر الكافي حتى لم ترفض مقدمه وصغيرة الى الحدّ الذي يمكنها من التمتع بدور الأم معه.

«لم يكن ما سمعت حلماً».

قال كيث باصرار وهي تدس أطراف الغطاء تحته.

«اسكت ستوقظ الآخرين. نم جيداً».

انحنت لتقبله فتلقت في المقابل عناقاً حميماً وهو يقول:

«تصبحين على خير يا عزيزتي تشارلي.»

زل لسانه بهذا التدليل لأنه كان يشعر بالنعاس. فقد كان يناديها هكذا عندما كان صغيرا وقد اشتق اسم التدليل هذا من أغنية اسكتلندية عن الفارس الصغير.

كانت الأغنيات الشعبية لبريطانيا وجزر الهند الغربية وبعض الاسطوانات الكلاسيكية هي كل ما يعرف ابناء مارتن عن الموسيقى سمعوها من جهاز عتيق عندهم للاسطوانات. أما معرفتهم بالأغاني الحديثة الواسعة الانتشار فلا تتعدى وصول بعض المقتطفات الى سمعهم من أجهزة الراديو المجاورة.

عندما عادت شارلوت كانت فلافيا قد خلعت ثيابها. فالرعب الذي سببه لها كيث نجح في تهدئتها.

جلست شارلوت على حافة فراش أختها قائلة:

« فلافيا، أنا آسفة لما حدث. ولكن كيف كان لي أن أعرف أن ليام هاملتون له علاقة بمعارفك أصحاب اليخت؟ لم يكن يبدو عليه أنه سائح غني. وأنا لم أخبرك عن لقائي معه لأنك كنت في حال انفعال شديد بشأن الحفل. ظننت أنك لن تهتمي بهذا الموضوع الابعد عودتك».

«أين التقيت به؟»

«أوه... على بعد أميال قليلة من الساحل».

«أنت تعرفين أنه ما كان لك أن تتحدثي مع أغراب».

«ولكنك تحدثت مع جون».

«هذا وضع مختلف. فجون يقربني سناً. أنا لم أكن لأصادق رجلاً في سن هاملتون هذا. فبوسع أي شخص أن يرى كم هو كريه».

«كريه؟ لماذا تقولين هذا؟»

«أظن أنك استلطفته؟»

«ليس في بادىء الأمر. ولكني استلطفته فيما بعد».

«ما كنت ستفعلين ذلك لو أنك رأيته وهو يتصرف بحماقة مع تلك المرأة».

«يتصرف بحماقة ؟ ماذا تعنين؟»

«كانا يرقصان معا، وكانت تحيط عنقه بذراعيها، بينما كان هو يهمس شيئاً في أذنها... بل أنني رأيته يقبلها ـ أمام الجميع. أعتقد أنه كان منتشياً... وكانت هي التي جعلته يلحظني. فقد قالت له شيئاً عني... أعتقد أنها كانت تهزأ بثوبي. وهي ترتدي ثوبا من الحرير الشيفون وكثيراً من المجوهرات. بعد ذلك ظلّ يحدق فيّ، ثم طلب من جون أن يقدمه اليّ. وبمجرد أن سمع اسمي قال: «أأنت أخت شارلوت؟» ثم سألني اذا كان والديّ يعرفان بمجيئي. كنت ـ كنت أود أن تبتلعني الأرض في تلك اللحظة عاد جون ومعه مشروب لي. ولكن هاملتون هذا رفض أن يتركني أتناوله وشربه هو. وعندما غضب جون دفعه الى أحد المقاعد وجذبني من ذراعي ليعيدني الى المنزل، قائلاً لتلك المرأة«تارا»، «سأعيد هذه الطفلة الى منزلها فقد تأخرت عن موعد ذهابها الى الفراش.» هذه الطفلة! يا له من جبان حقاً! وفي تلك اللحظة كان الجميع يحملقون بي!»

«كان محقاً. فقد تأخرت فعلاً عن موعد ذهابك الى الفراش. ولا اعتقد أنك تصفينه بأنه كريه لمجرد انه استنتج أنه ليس من المفروض أن تكوني في مثل هذا المكان».

«ليس هذا هو كل ما هنالك، فقد عانقني!»

اتسعت عينا شارلوت وهي تقول:

«ماذا؟»

«قال، «والآن ـ تعرفين ما هو العناق. فلا تدعي فضولك يقودك الى التهلكة مرة أخرى. لو لم أكن قد التقيت بأختك، ربما كنت ستندمين على مغامرتك الطائشة هذه. ماذا كان يعني بقوله هذا؟»

« أعتقد أنه يقصد أنه لو لم أكن قد ذكرت اسمك، لم يكن سيتعرف عليك، وأنك ما كان يجب أن تذهبي الى هناك».

«كيف عرف هذا؟ من المؤكد أنك قلت له أكثر من اسمي».

«قلت، انه رغم أنك أكبر مني سناً، أبي لا يسمح لك بالخروج مع الفتيان».

«قلت هذا لشخص غريب؟ أكيد أنك جننت. ليس من حقك أن تناقشي حالتي».

«لم أفعل ذلك تماماً. جاءت هذه السيرة صدفة استطراداً لشيء كان يتحدث عنه».

«بالقطع أكنتما تتبادلان حديثاً ذا طبيعة خاصة. هل لي أن اسأل ماذا كنتما تناقشان؟»

أدركت شارلوت أن عليها أن تقول لفلافيا الحقيقة. وبدون أن تكشف لها عن مكان لقائها بهاملتون شرحت لها كل شيء وكيف أنه عانقها ايضاً. ظانا أنها أكبر سناً من حقيقتها.

استشاطت فلافيا غضباً من هذا الاعتراف:

«تشارلي! يا له من أمر فظيع بالنسبة اليك!»

«لم يكن فظيعا. بل ارتحت الى ذلك العناق».

ارتعشت فلافيا تقززاً لاستعادتها هذه الذكرى قائلة:

«حقاً ارتحت اليها؟ أما أنا فقد كرهتها. حسناً، ان هذا يثبت كم هو شخص سيء. فما من رجل مهذب يقدم على عناقك وعناقي وعناق تلك المرأة في يوم واحد».

كانت هناك لحظة صمت قبل أن تقول شارلوت:

«أنا تعبة، سأنام، تصبحين على خير».

ولكن برغم الساعة المتأخرة والتوتر غير المعتاد الذي تعرضت له طوال اليوم، مرّ وقت ليس بقليل قبل أن تتمكن من النوم. كان آخر ما تفكر فيه عادة قبل أن تغمض عينيها هو منزل جزيرة سوليفان، الذي ستملكه، ولكن الليلة لم يكن بوسعها أن تفكّر في المنزل بدون أن تفكّر في ليام هاملتون.

هل كانت فلافيا محقة؟ هل هو حقاً رجل سيء؟ ومن هي تلك المرأة التي تدعى تارا؟

ولراحة بال الفتاتين، لم يثر كيث مارتن صباح اليوم التالي الى ما أزعجه في نومه الليلة الماضية.

بعد الافطار أعطى رافاس الأولاد الثلاثة دروسهم. أما شارلوت فقد أعفيت من هذا الروتين منذ عيد ميلادها السادس عشر. إلا أنها حتى الآن ينبغي عليها أن تخصص بضع ساعات كل أسبوع للدراسة، ولكنها أعطيت حرية

اختيار مكان وزمان إنجاز تلك المهمة ما دامت تقرأ الكتب التي يُختارها لها أبوها. وحتى يضمن أنها لا تهمل واجبها كان رافاس يضع لها امتحاناً كل شهر تقريباً أو يطلب منها كتابة بحث في موضوع دراستها الحالي.

بعد تناول وجبة الغداء، اصطحب رافاس أولاده الثلاثة وذهبوا الى المكتبة العامة في العاصمة. وبينما كانت أمها و فلافيا منشغلتين ببعض الاصلاحات المنزلية، انسحبت شارلوت الى أقصى الشرفة لكتابة مذكراتها. وحينئذ رفعت رأسها وتطلّعت صوب البحر عندما شدها أزيز بعيد لصوت محرك. كان هناك زورق سباق قرمزي يعبر وسط مياه الخليج مقبلاً من ناحية سولت بوينت.

ومع أن عينيها سجلتا بريق ذلك اللون الزاهي كان عقلها مستغرقا للغاية. مرّت بضع لحظات قبل أن تعود الى الحاضر، وفي نفسها ادركت ان الزورق حوّل مساره وبدأ يلف في خط شبه دائري واسع لينتهي بالقرب من مرفأ عائلة مارتن.

«ترى من هذا؟»

تساءلت هيلين مارتن بعدما أصبح جلياً أن زائراً قادماً نحوهم.

ولكن ما من واحدة من بناتها تطوعت للاجابة، أما هي فلم تلحظ التعبير الذي علا وجهيها والذي يؤكد أنه كان بوسعها أن تفعلا ذلك.

وبينما كان ليام يقترب من المنزل رأت أنه كان حليق الذقن اليوم وأنه يرتدي قميصاً وسروالاً ملتصقين بجسده بطريقة تختلف عن ملابس أبيها وأخوتها.

وصل الى حافة الشرفة وقد بدا عليه أنه لم يلحظ الفتاتين. وجه ابتسامته لهيلين التي نهضت في حيرة لتحيته، ثم قال:

«مساء الخير. هل أنت السيدة مارتن؟ أعرفك بنفسي، اسمي هاملتون».

مدّت يدها لمصافحته وقالت في تردد:

«كيف حالك؟ زوجي ليس في المنزل الآن أظنك جئت لرؤيته؟»

«نعم ـ كنت أمل أن أراه».

«أخشى أنه لن يعود سريعاً. أيمكنك أن تحضر غداً؟ هل هناك رسالة يمكنني ابلاغه اياها؟»

«أنا لست هنا لمهمة معينة يا سيدة مارتن. انها مجرد زيارة اجتماعية.»

«أوه!»

للحظة وقفت هيلين مأخوذة. منذ زمن لم يأتيهم زائر فأحسّت بالاضطراب.

«ربما جئت في وقت غير مناسب؟»

«أوه كلا، كلا على الاطلاق. تفضل بالجلوس. كل ما في الأمر أننا لا نرى كثيرا من الناس فظننت...»

جمعت شتات نفسها ثم استطردت قائلة:

«هذه هي فلافيا ابنتي الكبرى».

«كيف حالك يا آنسة مارتن؟»

كانت شارلوت قد تركت مقعدها فلم يمكنها أن ترى وجه أختها هذه اللحظة ولكنها كانت ترى وجه ليام، لم يكن في تعبير وجهه ما يدل على أنه ليس بحاجة الى هذا التعريف.

ثم قالت هيلين قبل أن تعرّفه بشارلوت:

« فلافيا، اذهبي وأبلغي فيوليت أن لدينا زائراً؟ ماذا تفضّل يا سيد هاملتون؟ قهوة أم شراباً بارداً؟»

«شراب بارد لو سمحت».

وبينما كانت فلافيا تجري الى الداخل واصلت السيدة مارتن كلامها:

«وهذه شارلوت».

لم يمد ليام يده هذه المرة ولمعت عيناه الزرقاوان باهتمام واضح وهو يقول:

«مرحباً مرة ثانية، لقد التقيت أنا وشارلوت من قبل.»

لاح الفزع على هيلن وهي تقول:

«هل التقيتما من قبل؟»

«نعم... بالأمس، وجدتني اعتدي على أحد شواطئها المفضلة. في البداية وأظهرت ضيقها لكنها لانت فيما بعد وسمحت لي أن أقاسمها غداءها».

لم تسأل هيلين عن سبب تجاهل شارلوت ذكر تلك المقابلة. فهي تعرف السبب. اذ كان السبب نفسه الذي تحسه الآن حين تفكر أنها ستضطر لأن تقول لزوجها عن زيارة السيد هاملتون. سيكون عليها أن تواجه استياءه بل ربما غضبه لما قد يعتبره اقتحاماً غير مبرر لحياته الخاصة. ولكنها أبعدت ذلك القلق

لشعورها بالغبطة في التحدث مع زائر ما... أي زائر.

«هل جئت لتقيم هنا يا سيد هاملتون».

«لم أحضر بهذه النية. ولكن الخاطر مرّ بعقلي. أعتقد أنك أقمت هنا عدة سنوات؟ فهل تنصحينني بذلك؟»

«المناخ هنا رائع، والجزيرة في غاية الجمال والهدوء. ولكن هناك بعض السلبيات.»

«ما هي؟»

«أعتقد أن السلبية الأساسية هي صعوبة حصولك على دخل يغطي نفقات الحياة. ولذا كان من الصعب على ذلك النمط من الناس الذي يفضل الهجرة الى استراليا أو كندا على أن يأتي الى هنا. فلا توجد فرص عمل تكفي لتغطية حاجات السكان الأصليين. فجزر الهند الغربية تناسب فقط الأثرياء، أو قلة، التي على شاكلتنا وترضى بحياة بسيطة. زوجي كان يعمل ناظر مدرسة. أما الآن فهو كاتب، ولذا يمكننا أن نقيم في المكان الذي يحلو لنا. هل أنت أيضاً حرّ بهذا المعنى يا سيد هاملتون».

«نعم بكل المعاني».

«أليس لك أسرة ترعاها؟»

«كلا. لا أحد غيري».

«في هذه الحالة، ألن تشعر بقدر من الوحدة هنا؟ إن هناك الكثير لتفعله طوال النهار ولكن المكان يصبح هادئاً للغاية بعد غروب الشمس. أعتقد أن باربادوس أو ترينيداد قد تتناسب أكثر مع حياة الأعزب».

«نعم معك حق. كما قلت لك أنا لم اعط هذه الفكرة تفكيرا جادا بعد».

«أين تقطن الآن يا سيد هاملتون؟»

«ليس لي منزل. نشأت في انكلترا ولكنني قضيت معظم سنوات حياتي بعد بلوغي سن التضج في الترحال.»

«أوه، حقاً ؟ يا له من شيء مثير».

انتظرته حتى يكمل حديثه، ثم ترددت في أن تستحثه عندما لم يفعل ذلك. أما شارلوت فقد كانت أقل حياء في رغبتها إرضاء فضولها فقالت:

«هل اليخت ملكك؟»

«اليخت».

بعد فوات الأوان تذكرت أنها لم تعرف بأمر هذا اليخت إلاّ بسبب تسلل فلافيا خارج البيت، فاستطردت:

«أشرت اليه في حديثك أمس».

«حقاً، لا أذكر. لكن هذا اليخت ليس ملكي، انه ملك تارا مونتيفالكو... الأميرة مونتيفالكو»

«الأميرة مونتيفالكو؟ هل تعني أنها أميرة حقيقية؟»

«هذا يعتمد على ما تعنيه أنت بكلمة حقيقية. فمونتيفالكو هو لقب من بين مئات الألقاب الايطالية الغامضة. انها اليوم مجرد أسماء. اكتسبت تارا هذا اللقب عن طريق الزواج».

تذكرت شارلوت ما قالته لها فلافيا عن ليام وتارا فتساءلت:

«وأين الأمير مونتيفالكو؟ هل هو معكم على اليخت أيضاً؟»

«كلا ، انه في مكان ما في أوروربا، فهما منفصلان».

عادت فلافيا وهي تحمل أكواب عصير الليمون. وعندما وقف ليام، رمقته بنظرة عصبية عدائية. غمز اليها فصعدت الدماء الى وجهها. ولكن هيلين لم تلحظ غمزة العين ولا احمرار الوجه. أما شارلوت فقد لاحظتها. ومن هذه اللحظة وثقت أنه لن يخون أيا منهما ويكشف أمرهما. ولكن في هذه الحالة ترى لماذا جاء؟ مكث قرابة نصف ساعة تحدث في معظمها مع أمها. وعندما نهض ليرحل سار معه الجميع حتى المرفأ. لم يصافح شارلوت ولكنه ربت على كتفها وكأنها في عمر كيث قائلاً:

«وداعا يا صغيرتي شارلوت. شكرا لدعوتي الى الغداء. ولكن الأفضل ألا تكرري الدعوة».

وعندما اختفى الزورق عن الانظار قالت شارلوت لأمها:

«أرجو ألا تكوني غاضبة لأني تحدثت معه بالأمس؟»

«كلا... ولكن ليس من الحكمة أن يكون المرء ودوداً بهذا الشكل مع الأغراب. هل استلطفته؟»

«لم أكرهه يبدو أنه مشتت».

أضافت هيلين تلك الكلمات الأخيرة وهي تفكر بصوت عال.

«تماماً ـ تلك هي الكلمة التي كنت أبحث عنها بالأمس. كنت أعرف أن هناك كلمة تصفه تماماً».

«هل أنت متأكدة أنك تعرفين معنى هذه الكلمة يا عزيزتي؟»

«بالطبع. فأنا اذا لم أعرف معنى كلمة أبحث عنها في القاموس. ومشتت تعني مسرف وغير مستقر. ولكنها عادة تستخدم لوصف الأشخاص...الأشخاص الذين يبددون حياتهم».

أخفت أمها دهشتها. فكانت تظن أن شارلوت ما زالت صغيرة على القيام بعملية ربط بين ما تقرأ في الكتب وبين الناس الذين تلقاهم في الحياة. كانت هيلين تشك في أن أيا من أبنائها ابتعد عن تفهم أمور الحياة كما كان يريد لهم أبوهم. ورغم وعيها هذا كانت مفاجأة لها أن تدرك أن شارلوت التي تبدو غاية في البراءة بوسعها أن تكون رأيا صائباً بالنسبة الى شخصيات البشر.

«هل ستقولين لأبي عن مجيئه؟»

«هل هناك سبب يمنعني من ذلك؟»

«كلا...بالتأكيد. ولكنه لا يحب الأغراب عادة...وأعتقد...حسناً أعتقد أن معرفة الناس أمر مثير للاهتمام».

«ولكني لا أظن أن السيدة هاملتون أو رفاقه يجدون فينا شيئاً يثير اهتمامهم. وأشك في أنه سيزورنا مرة أخرى ولذا فليس من الأهمية في شيء أن يستلطفه أبوك أم لا. فهيّا بنا الى عملنا».

ولكن عند عودتها الى الشرفة لم يكن من السهل على أي منهما أن تركز في العمل الذي أوقفه مجيء هاملتون. فجلست شارلوت تقطع قلمها وتفكر في أصحاب اليخت وخاصة تارا مونتيفالكو. أما هيلين فكانت تشعر بالقلق. مع أنها كان تتوقع، وتتهيّب، في آن واحد، مجيء الوقت الذي يبدأ فيه أبناؤها الاعتراض على آراء راڤاس، لم يتخيّل اليها أن تأتي أول بادرة لعدم الارتياح من ابنتها الصغرى.

كانت تتوقع أن فلافيا ستكون أول من سيتمرد، ليس لأنها الكبرى ولكن أيضاً لأنها لا تتفق مع أبيها كثيراً. فراڤاس كان يريد أن يكون كل أولاده

ذكوراً وجاء مولد فلافيا خيبة أمل كبيرة له. ثم صار يفضل شارلوت لأنها أكثر ذكاء و لا يجهد نفسه كثيراً لاخفاء هذا التفضيل.

ولكن عندما عاد الأب لم تبلغه هيلين بأمر الزائر. فقد بدا غريباً وعلى غير عادته وكانت نظرة واحدة في وجهه كافية لأن تنسيها كل شيء.

وبعد أن دلف الى غرفة نومه ومن ورائه أمها بادرت شارلوت اخوتها متسائلة:

«ماذا حدث؟»

أجابها روب قائلاً:

«لا أعرف، كان في صحة طيبة حتى وصلنا الى منتصف طريق العودة. ثم فجأة أحس بألم فظيع».

وأضاف بيتر قائلاً:

«كان وجهه متقلصاً وكان لا يقوى على الكلام. كان ذلك شيئاً فظيعاً».

ركضت شارلوت نحو غرفة والديها وتساءلت:

«هل أذهب لأحضر الطبيب؟»

انبرى رافاس قبل أن تتكلم زوجته قائلاً في غضب:

«لست في حاجة الى طبيب. لو جئتم به فلن ألقاه. اتركوني في سلام. لا داعي للقلق ودعوني أستريح».

عندما ذهبت الفتاتان لتناما تلك الليلة تساءلت قائلة:

«ما تصوّرك عن سبب مجيئه؟»

«مجيء من؟»

هكذا ردّت شارلوت شاردة الذهن. فقد كانت قلقة بشأن أبيها.

«هذا الرجل الذي يدعى هاملتون، من سيكون اذن؟»

«ليس لدي أدنى فكرة. هل هذا أمر هام؟ كنت أتمنى أن يسمح أبي بمجيء الطبيب. فهو يبدو مريضاً جداً».

«لن يفيده أن يفقد أعصابه ـ وهذا ما سيحدث إذا جاء الطبيب بدون إذن منه».

«ولكن ليس من العدل بالنسبة الى أمي. فهي قلقة الى حد المرض».

«أنا لم أتفهم أبداً السبب الذي جعلها تتزوجه».

« فلافيا!»

صاحت شارلوت في فزع.

«حسناً هل تتفهّمين ذلك أنت؟ إنه لم يحاول ابداً أن يجعلها سعيدة. أما هي فعليها أن تفعل دائما ما يريد...علينا جميعاً أن نفعل ذلك».

«أوه، اسكتي. كيف لك أن تكوني بهذه الفظاعة؟ إن أبي مريض، وكل ما تقلقين بشأنه هو أنك لا تفعلين ما تريدين».

أدارت كل منهما ظهرها للأخرى. ولم تتبادلا كلمة واحدة بعد هذا.

بدا رافاس مارتن في اليوم التالي وقد استعاد صحته تماماً. فاستقبلت فلافيا والأولاد الثلاثة عودته الى الحياة الطبيعية ولم يفكروا في الأمر مرة ثانية أما هيلين وشارلوت فما زال يساورهما بعض القلق.

وبعد مضي ثلاثة أيام رأت شارلوت زورقاً أحمر بمحرك ينطلق عبر الخليج. أثارت رؤيته فضولها من جديد وقررت أن تذهب لمشاهدته.

ولأن الأولاد كانوا يستخدمون الزورق في ذلك اليوم ركبت الأوتوبيس ونزلت قرب طريق ينحدر بشدة نحو الشاطىء.

كان الشاطىء خاوياً. جلست شارلوت تستظل تحت النخيل، وقد أحاطت ساقيها بذراعيها وهي تحدق في المركب الابيض الضخم الذي بدا مهجوراً. لم يكن الزورق مربوطاً بالسلم المتدلي من جانب اليخت مما أوحى بأن الأميرة مونتيفالكو وضيوفها خرجوا في جولة استكشافية.

خلعت شارلوت ثوبها الذي كانت ترتديه فوق رداء البحر الأزرق الباهت ونزلت تستحم. في بادىء الأمر لم تكن لديها نية للاقتراب من اليخت. ولكن بعد أن مكثت في المياه ولم تظهر أية بادرة للحياة فوق سطح اليخت لم تستطع المقاومة ودنت حتى أمسكت بالسلم وبعد لحظات كانت قد وصلت الى قمته.

وبينما هي واقفة على السلم في تردد سمعت صوتاً يقول:

«مرحباً... من أنت؟»

كادت شارلوت تسقط عن السلم فزعاً. فحتى لو كان لها حق الدخول الى هذا المكان لكان الصوت قد أفزعها. لقد كانت واثقة تماماً من أن أحداً لم يكن في

اليخت.

ناولها منشفة قائلاً:

«تناولي هذه، رأيتك من قمرتي وأنت تقتربين. كان منظرك ساراً للغاية. هذا اليخت أصبح طوقاً لنجاة الغرقى. تعالي الى السطح حيث الشمس وسأعد لك شيئاً لتشربيه. اسمي جون. وأنت؟»

«تش... تشارلوت».

« تشارلوت؟ ألست شارلوت مارتن؟»

أومأت برأسها. تراجع الشاب خطوة الى الوراء يرمقها من أسفل الى أعلى بابتسامة قائلا:

«إذن أنت الأخت الصغرى لفلافيا؟»

لم تسترح شارلوت للطريقة التي كان يفحصها بها فلفت المنشفة حول نفسها مسرورة لكونها غطتها حتى ركبتيها. ورغم أن ليام امتدحها بالطريقة نفسها في الجزيرة، لكنها لم تحس كالآن بمثل هذا الشعور من عدم الارتياح والنفور مع أنه كان وسيماً للغاية.

سألته في عبوس:

«ماذا يضحكك؟»

«أعطانا ليام صورة عنك على اعتبار أنك مجرّد طفلة. ظننا من الطريقة التي تحدث بها عنك، أنك في العاشرة من عمرك تقريبا. حقاً سأرد له هذه الدعابة في المستقبل. وبالنظر الى سمعته توقعت أنه ينوي شيئاً عندما أثار هذه الضجة حول مجيء أختك. ثقي أنه يتعقب الصيد الأمثل ويلزم الصمت تماماً بشأنه.»

أخذت كراهية شارلوت له تتصاعد مع كل كلمة:

«ماذا تعني بقولك «بالنظر الى سمعته»؟»

«حسناً، لا أخالك تصوّرته من فتيان الكشافة؟ اختك تبدو بطيئة الفهم قليلاً، أما أنت فأكثر ذكاء».

«يا لك من فظ كان فعلاً غباء من فلافيا أن تعجب بواحد مثلك».

«آسف، لم أقصد الأهانة، فأنا استلطف أختك. ولكن ما ذنبي اذا استلطفتك أنت أكثر؟ تعالي لتشربي شيئاً ونصبح صديقين».

«كلا، شكراً، جئت لأرى ليام، اذا لم يكن موجوداً فلن أنتظر».

«بوسعك أن تنتظري نصف ساعة أليس كذلك؟ أنهم في فترة راحة بعد الغداء».

«لا يهم. فالأمر ليس بهذه الأهمية».

«كلا، لا تذهبي! أنا واثق من أن ليام يود أن يراك، و تارا أيضاً».

«لماذا؟ إنها لا تعرفني».

«كلا، ولكنها دائما تهتم بالتعرف الى صديقات ليام...الأخريات. يجب أن تنتظري حتى تلتقي بها. ستحبان بعضكما بعضا من النظرة الأولى».

برغم أنه كان يبدو جاداً، كان لديها إحساس داخلي بأنه يقول هذا تهكماً. ومع أنها لم تأت أصلاً الى اليخت لهذا الغرض، أحسّت أنها تود أن ترى ليام مرة أخرى.

«حسناً، سأنتظر».

صحبها الى سطح اليخت ثم بادرها قائلاً:

«ماذا تشربين؟»

«شراب من فضلك».

ضغط على جرس بجواره ثم فتح صندوقاً بدا بداخله شيء كبكرة الأفلام.

«ما هذا؟»

تساءلت عندما انتقى إحداها ووضعها في جهاز به قرصان دواران.

«عم تسألين؟ هذا ؟ يا إلهي ألم تري من قبل جهاز تسجيل. هذا المكان بدائي أكثر مما أتصوّره. وماذا عن جهاز التليفزيون

«هناك محطة للتليفزيون. ولكننا لا نملك جهازاً».

بدأ الجهاز يخرج صوت موسيقى. وظهر خادم صغير أسمر من دول أميركا اللاتينية فأمره جون باحضار المشروبات.

جلست شارلوت على حافة أحد المقاعد آملة ألا تتلف ثيابها المبتلة قماش المقعد الفخم. وظهر الخادم مرة ثانية وقد حمل المشروبات على صينية من الفضة. ابتسمت له شارلوت قائلة:

«شكراً لك».

وبعد لحظات انضمت اليهما سيدة، كانت شقراء، دقيقة الجسم ترتدي رداء بحر

أحمر وصندلاً مذهباً مزيناً بأحجار حمراء. كان الجزء العلوي من وجهها قد غطته نظارة شمس ضخمة مما جعل شارلوت ترى أول ما ترى شفتيها وقد طلتهما بلون أحمر ثقيل.

«أوه، ها أنت يا جوني... من هذه؟»

«صديقة لليام، اسمها شارلوت، شارلوت هذه جينين أمي.»

دمدمت شارلوت بينما رفعت جينين نظارتها ثم حاجبيها قائلة:

«صديقة لليام؟»

«تلك الفتاة الصغيرة الظريفة التي لقيها عندما كان يتجول وحده».

أطلقت أمه ضحكة غليظة قائلة:

«أه تذكرت، أين تارا؟ هل عرفت أن عندنا ضيفة؟»

وقبل أن يجيبها صعد الى السطح عدد آخر من الناس. وبعد أن عرّفهم جون بشارلوت أخذوا، مثل أمه، يتضاحكون ويتغامزون، الأمر الذي جعل شارلوت تشعر بمزيد من عدم الارتياح. حاولت ألا يظهر هذا عليها. وان تمنت أن يجيء ليام في هذه اللحظة. لم تكن تفهم لماذا يبدي الجميع كل هذا الاهتمام بها.

فجأة ظهرت امرأة أخرى، وأدركت شارلوت فوراً أن هذه هي تارا مونتيفالكو وعلى خلاف الجميع الذين كانوا في ثياب السباحة، كانت ترتدي بيجاما هفهافة من حرير رقيق زاهي الألوان. كانت بشرتها سمراء. وكان شعرها أسود قصيراً ملتصقا برأسها وكان لديها أطول أهداب رأتها شارلوت في حياتها.

«عزيزتي تارا، تعالي لتتعرفي بصديقة ليام. بدأت أفهم لماذا يقضي معظم الوقت وحده بعيداً عنا. شارلوت، هذه هي مضيفتنا الأميرة مونتيفالكو.»

أحست شارلوت أن الجميع يحبسون أنفاسهم وكان بوسعها أن تحس بالتوتر الذي يلف المكان.

قالت في تردد:

«كيف حالك؟ أمل ألاّ يكون لديك مانع لقدومي. جئت لأتحدث مع السيد هاملتون؟»

كانت عيناها الواسعتان الداكنتان لا تكشفان عما بداخلها. ثم قالت بصوت خفيض جذاب:

«سأرسل شخصاً يبلغه بذلك، ولكن قبل كل شيء ألا تحبين تسريح شعرك، وارتداء قميص حتى تجف ثياب البحر. فما من شيء يثير الاحساس بعدم الراحة أكثر من الجلوس في ثياب مبتلة. تعالي الى غرفتي».

كان جناح المضيفة بمثابة اكتشاف لشارلوت. كانت جدران الغرفة مغطاة بحرير أزرق متموج بينما الأريكة والمقاعد مغطاة بحرير ليموني اللون.

وهناك ردهة تكسوها ألواح خشبية تقود الى قسم النوم. دفعت أحد تلك الألواح لتكشف عن خزانة ملابس مليئة بالثياب، انتقت منها واحدا ذا ملمس مخملي وبلون أصفر.

«من الأفضل أن تأخذي حماماً لن يستغرق منك هذا أكثر من خمس دقائق».

قادتها عبر غرفة نوم وردية مذهبة الى حمام وملحق بها بلون وردي ناصع نادر، كقلب محارة ضخمة.

«عندما تكونين مستعدة تعالي الى غرفة الجلوس».

خلعت شارلوت ثيابها استعداداً لأخذ الحمام وهي تشعر بذهول من تطور الأحداث. كان هناك دوش في منزل أسرة مارتن ولكنه بدائي للغاية بالمقارنة مع القمرة المصنوعة من الزجاج والمعدن ونظامها المعقد لتدفئة المياه.

وعندما عادت الى غرفة النوم كان الباب مفتوحا قليلا كذلك كان الباب الواقع في نهاية الردهة. فسمعت تارا تتحدث مع شخص ما، ويبدو في صوته الضيق وهي تقول:

«كلامك مضحك وغير معقول، فأي انسان يستطيع أن يرى أنها مجرد طفلة».

جاء صوت جينين مجيباً:

«طفلة جذابة جداً يا عزيزتي...»

«نعم، ستكون رائعة بعد سنوات قليلة. ولكنها الآن ساذجة بالدرجة التي لا تجذب ليام».

«هل أنت واثقة من ذلك؟ أنا لا أريد أن أقلقك يا عزيزتي ولكن يجب أن تعترفي أن أمره أصبح محيراً في الآونة الأخيرة. أين يذهب بمفرده؟ انه ضيفك الخاص. لو

كنت مكانك لأحسست بجرح في كبريائي».

«نعم أتوقع أن تكوني كذلك. ولكنك أكبر مني سناً بكثير. وعندما تبلغ المرأة سنك تصبح عادة أكثر عصبية ومحبة للتملك».

عند هذا الحد، أدركت شارلوت أن ليس من حقها أن تستمع الى هذا الحوار، فأغلقت الباب. ولكن ما سمعته، على قلته، كان كافياً ليجعلها تدرك أن هؤلاء الناس برغم أنهم يبدون مهذبين، غير قادرين على الأذى لكنهم في حقيقة الأمر كالأسماك البحرية المتوحشة.

لم تكن قد انتهت من تمشيط شعرها عندما عادت تارا الى غرفة النوم. وقالت:

«يبدو أن ليام أخذ الزورق وذهب الى مكان ما. لكنه قد يعود سريعا. تعالي وتناولي معي وقصي عليّ كل شيء عن نفسك».

تبعتها شارلوت الى قمرة الاستقبال حيث جلست تارا على الأريكة في أناقة. وأخرجت علبة السكائر قائلة:

«أتدخنين؟ كم عمرك؟»

«أنا في السادسة عشرة من عمري. السابعة عشرة تقريباً».

أجابت شارلوت وهي تجلس بارتباك على حافة المقعد.

سألتها تارا أسئلة عدة، ثم أحضر الخادم الشاي على صينية من الفضة كان بوسعها أن تلتهم الشطائر في قضمة واحدة لكنها نجحت في أن تستبقيها لعدة قضمات. كانت تخشى أن تسقط أو تسكب شيئاً، كما أن احساسها بأن المرأة ترقبها جعلها أكثر عصبية.

«هل هناك رسالة أبلغها لليام اذا ذهبت قبل أن يعود؟»

«أوه، كلا، شكراً. جئت فقط لأودعه اذ قال أنكم سترحلون قريباً».

«نعم، سنرحل غداً. هل تستلطفينه؟»

«نعم، انه يبدو لطيفاً».

ردت شارلوت في حذر بينما أطلقت تارا ضحكة خفيفة وسألت في تهكم:

«هل تظنين كذلك؟»

«ألا ترين أنت هكذا؟»

«ذلك يعتمد على ما تعنين بكلمة لطيف. ففي لغتي هي بمعنى شخص مسالم ولكنه ممل. فكيف تفهمين أنت هذه الكلمة؟»

«أنه ودود وطيب، في رأيي».

ضحكت تارا مرة أخرى قائلة:

«أنت فتاة برينة. فمعظم الفتيات اللواتي في سنك يجهلن الكثير عن الرجال الى ان يتعرفن على ذلك النمط الذي يعرف بالنوع الخطر».

«ماذا تقصدين بالنوع الخطر؟»

«النوع المتخصص في الايذاء... ليام ليس رجلا لطيفاً يا عزيزتي، بل أنه رجل مؤذ. وسمعته الفاضحة هي التي تجعله جذاباً الى هذا الحد. وأنا نفسي أنتمي الى هذا النمط لكن الفرق الوحيد بيننا هو أنه كان عليّ أن أناضل من أجل الحصول على ما أريد. أما ليام فقد ورث أمواله. لقد كان حراً دائماً».

نهضت السيدة ونظرت من فتحة في جانب اليخت بعد أن سمعت عن بعد هدير محرك.

«ها قد عاد الزورق. سيكون معنا بعد دقائق. ماذا تنوين أن تفعلي بحياتك».

«لا أعرف. لم أفكر في الأمر بعد».

«اذن يجب أن تفكري. أنت قد لا تدركين أنك في موقع ممتاز هنا. فعندما كنت في السابعة عشرة من عمري كنت حبيسة مدينة صغيرة في انكلترا. كان عليّ أن أفلت. وأخرج للبحث عن فرصي. أما أنت فبوسعك أن تنتظري حتى تأتيك فرصتك وأنت في مكانك ـ ربما فوق يخت مثل هذا».

لم تقل شارلوت شيئاً. في البداية تأثرت بسحر تارا، وأحست بالارتياح إزاء صداقتها غير المتوقعة. ولكن كان هناك شيء منفر في نبرة تارا. وبينما هي تسمع صوت اقتراب الزورق سألت شارلوت نفسها ما إذا كان ليام أيضا سيبدو مختلفا غير محبب وسط هؤلاء القوم.

بعد مضي بضع دقائق دخل ليام ولاحظ على الفور أن تارا لم تكن وحدها. لم يبدو مسروراً لرؤية ضيفتها فسأل بفظاظة:

«ماذا تفعلين هنا؟»

أجابته تارا قائلة:

«جاءت لتراك».

«أوه؟ لماذا؟»

تساءل وهو ينظر الى شارلوت بطريقة جعلتها تحس وكأن تعارفهما كان عابراً للغاية.

أحست بالدماء تصعد الى وجهها وقد انربط لسانها.

«ربما من أجل أمر خاص، سأترككما».

قالت تارا تلك الكلمات وهي تتجه صوب الباب.

اتجه ليام نحوها، وبيد خفيفة على وسطها، أرجعها نحو الأريكة. جلسا سوياً، ملتصقين، ثم جذب نفساً من سيكارتها.

للحظة أخذا يتبادلان النظر في ابتسام وألفة خاصة، الأمر الذي جعل شارلوت أكثر توتراً.

«أليس هذا الثوب الأصفر ملكك يا تارا؟»

تساءل ليام بعد أن لاحظ الثوب الزعفراني. ربما لم يكن يقصد ولكنه جعل شارلوت تحس أنه من الوقاحة أن ترتدي ثوبا صمم لواحدة أكثر منها أناقة ورشاقة.

«نعم، قطعت شارلوت المسافة بين الشاطىء واليخت سباحة. ولم يكن ممكناً أن تبقى في ثياب مبتلة».

قفزت شارلوت قائلة:

«يجب أن أذهب الآن. لقد جئت لأودعك وأشكرك على أنك لم تقل عن الجزيرة».

«أية جزيرة؟»

قالت تارا متسائلة:

«عندما التقيت بشارلوت كانت تعتدي على ملكية خاصة مهجورة».

ذكرته شارلوت قائلة:

«وأنت أيضاً».

تجاهل كلماتها وبادرها متسائلاً:

«أين ملابسك لأعيدك الى المنزل؟»

«لا تقلق سأعود بالطريقة التي أتيت بها».

ضحكت تارا وتبعتها الى غرفة النوم. وهناك بادرتها قائلة:

«هل تخيفك الآن إمكانية بقائك وحدك مع ليام بعد ما قلته لك عنه؟ لا تقلقي فأنت في مأمن معه. ليام قد يكون فاسقاً ولكن لديه القدرة على التمييز وبرغم أنك جذابة جداً لكنني لا أظن أنك بلغت مجاله بعد».

تساءلت ما سيكون ردّ فعل تارا لو قالت لها: «انه لا يملك قدرة على التمييز كما تظنين. عانقني وعانق أختي أيضاً». ولكن ربما يكون العناق أمراً في بساطة الابتسامة بالنسبة الى قوم مثل هؤلاء، انغمسوا في الملذات.

بعد أن انتهت شارلوت من ارتداء ثيابها قالت:

«شكراً لك على الشاي أرجوك لا تزعجي نفسك بمصاحبتي الى اليخت ووداعاً».

أفسحت لها تارا الطريق قائلة:

«وداعاً يا شارلوت».

وجدت ليام واقفاً بجوار السلم المعلق الى جانبي اليخت فقالت له:

«أنا لست في حاجة الى من يوصلني، شكراً لك. وعلى العموم تركت ملابسي على الشاطىء. فوداعاً وأمل أن تستمتعوا ببقية رحلتكم في البحر».

ابتسمت له ابتسامة مقتضبة ومرت أمامه لتهبط السلم. ولكن لضيقها وجدت الزورق راسيا بطريقة تحول دون غطسها في المياه من فوق السلم بل كان عليها أن تمر أولا بالزورق عند تأرجحه بعد أن تسلقته في عجلة، وجدت من يمسك بها من الخلف ويدفعها نحو المقعد الأمامي برغم مقاومتها.

لم تكن لتستسلم الى هذه المعاملة، لو لم تلحظ جون، ووالدته، وآخرين يرقبون رحيلها.

وعلى مقربة من الشاطىء قال ليام:

«والآن اذهبي واجلبي ملابسك ولا تحاولي الفرار. فأنا أريد أن أتحدث معك، يا شارلوت الصغيرة».

وفي تمرّد أحضرت ثوبها ومنشفتها وألقت بهما الى سطح الزورق ثم ألقت بنفسها من ورائها حتى جعلت الزورق يتأرجح أكثر من المرة السابقة. كان سيسرها أن ينقلب ولكن بدلا من ذلك ارتطم مرفقها به فانفجر ليام ضاحكا. وعندما وصلا الى نقطة بعيدة من طرف الأرض أوقف المحرك وسألها

وفي نبرة صوته بقايا مرح وقد استدار نحوها مادأ ذراعه على ظهر المقعد:

«والآن، لماذا أنت غاضبة؟»

«أنا لا أحب أن يمسك بي أحد... وكأني كيس من الفول!»

«أنا آسف، ولكن تلك كانت الطريقة الوحيدة أمامي لايقافك. لكنك كنت غاضبة قبل ذلك».

«كلا، لم أكن غاضبة. أنا فقط لا أحب الانتظار. انتظرت قرابة نصف الساعة».

«أليس من الغريب أن تنتظري شخصاً ما نصف ساعة، ثم أن تهرعي بالفرار لحظة ظهوره».

«حسناً، ظننت أنك استأت لوجودي».

«ولماذا أكون مستاء!»

«لا أعرف ولكن من المؤكد أن هذا ما بدا عليك».

«فوجئت، هذا كل ما في الأمر، كيف كان لقاؤك مع تارا؟»

«كانت ودودة جداً معي».

«هل التقيت بأي من الآخرين؟»

«نعم، أعتقد أنهم بغيضون، خاصة جون بحذائه السخيف والعقد الذي يعلقه حول رقبته في حماقة».

ضحك قائلاً:

«لو كنت تعيشين في انكلترا لكان اخوتك قد زينوا أنفسهم مثله. ان هذا هو الاتجاه السائد».

«كلا من المستحيل! فالعقود للفتيات وليست للرجال!»

«أوافقك، ولكن ذوقي عتيق».

مد يده ليلمس خصلة مبتلة من الشعر على كتفها وقال:

«عندما أنظر اليك أحس أنني عتيق من جميع النواحي».

«أنت لست متقدماً في السن. كم عمرك؟»

«عمري بالسنوات اثنتان وثلاثون سنة. ولكن بمقدار ما بذلت من حياتي فأنا في حوال الخمسين من عمري».

«لا تبدو في نظري مستهلكاً. بل أن جسمك يبدو أكثر قوة من جون».

أحست فجأة أن غضبها تلاشى وعاودها ذلك الاحساس الذي أحسته عندما كانا يتبادلان الحديث وهما يتناولان غداءهما سوياً.

«لماذا جئت الى منزلنا ذلك اليوم اذا لم يكن هدفك أن تبلغ والدي بأمر الجزيرة؟»

لم يجبها على الفور بل جلس يداعب شعرها في استرخاء وقد اتجهت عيناه صوب المنطقة الخضراء النائية من الجزيرة.

«أعتقد للسبب نفسه الذي جئت من أجله الى اليخت اليوم. فضول للتعرف على طريقة معيشة النصف الآخر».

«أنا لم أدخل من قبل يختاً فخماً، ولم أقابل أشخاصاً متمدنين. ولكنني لا أرى سبباً وراء فضولك للتعرف على حياتنا. فنحن مثل أية أسرة عادية ليس فينا ما يثير الاهتمام».

«أي شيء غير معتاد مثير للاهتمام. وأنا لم انتمِ يوماً الى اسرة عادية».

«أتفكر حقاً في الاقامة هنا؟»

«ما الذي جعلك تفكرين في هذا؟»

«أنت، قلت هذا لأمي».

«هل قلت هذا؟ ربما فقط لأجد موضوعاً للحديث».

« تارا تقول عنك أنك غني جداً. أين ستذهب في باقي الرحلة؟»

لم يجب على سؤالها بل تساءل:

«كيف وردت حالتي الاقتصادية في الحوار؟»

وحتى تحول دون سؤاله أياها عن سائر ما قالته تارا عنه، بادرته قائلة:

«كانت تتحدث عنك... انها جميلة جداً. هل أنت... هل هي عشيقتك؟»

وقبل أن تنتهي من سؤالها فزعت لتهورها، وأعدت نفسها لصدمة قاضية تستحقها. ولكنه قال بثبات:

«نعم».

نظرت اليه لكنها لم تجد قسمات وجهه قد تجمدت. وظلت عيناه الزرقاوان هادئتين دون فتور.

«أنا ـ آسفة ـ ما كان يجب أن أسأل».

اعتدل في جلسته واستدار نحو عجلة القيادة قائلاً:

«الأمر ليس سراً».

وعندما أصبح الزورق مواجهاً لمرفأ منزلها، أمسك به ومدّ إليها يده الثانية، حتى تصل الى الشاطىء.

«وداعاً يا ليام».

في اليوم التالي رأت اليخت يتخطى هورتنسيا متجهاً صوب الشمال. وبينما هي ترقبه يختفي عن الأنظار أحسّت خليطاً من الراحة والقلق. فمن ناحية كانت سعيدة بذهابه. ولكن في الأيام التالية بدا لها نمط الحياة الذي كانت راضية عنه من قبل مملاً بشكل باعث اليأس: روتين لا نهاية له، لا يتبدل بين الأكل والنوم وملء الفراغ بشكل قد يستمر لسنوات قبل ان يحدث أمر لكسر هذه الرتابة.

وبرغم أن هذا الاحساس بالركود تلاشى تدريجياً، لكن ذكرى ليام لم تتلاشى. كانت تعلم أنه من الحماقة أن تعيش أحلام يقظة مع رجل لن تلقاه ثانية، ويكبرها بسنوات. مع ذلك لم يكن بوسعها أن تتخلّص من التأثير الذي تركه عليها. وبعد فترة نسيت تماماً زيارتها لليخت وأصبحت لا تتذكّر الآن سوى لقائها الأول. ثم بدأت تتذكره ليس كما كان، ولكن كما كان يحلو لها أن يكون. وبدأت تخلق قصصاً خيالية تقوم فيها هي وليام، الشاب البالغ من العمر عشرين عاماً بمغامرات حول العالم.

مرّ شهران قبل أن تتمكن شارلوت من أن تتسلّ مرة أخرى في إحدى رحلاتها السريعة الى جزيرة سوليفان.

وعندما وصلت الى المنزل، لم تصدّق عينيها. كانت النباتات الغارهة قد جزت، والمنطقة كلها خالية من النباتات الأرضية. وفي الطرف البعيد من تلك الرقعة المفتوحة، رأت عدداً من الأشجار المقطوعة.

وقفت شارلوت فترة طويلة من الوقت متجمدة فاغرة فاها دهشة. ثم تقدّمت نحو المنزل وهي مشدوهة. كانت هناك مفاجأة أخرى تنتظرها. فالباب الذي دبّ فيه العفن، والذي كان دائماً مفتوحاً بعد أن جمّد الصدأ مفاصله، استبدل بباب آخر، باب آخر مغلق.

وبحذر دفعته، فتحرّك الى الخلف على مفاصل جديدة لا تخرج صريراً. وظلت واقفة في مكانها لحظات تنصّت. كان المنزل ساكناً كالعادة. دخلت ثم أغلقت

الباب خلفها في هدوء.

كان أول ما لاحظت في البهو هو اختفاء الفروع والنباتات المتعرشة عن الدرج. وفي المطبخ اكتشفت وجود موقد صغير وأشياء أخرى تكفي احتياجات فرد أو اثنين.

وفي الطابق العلوي، وجدت أن غرفتين من غرف النوم أغلقتا. وضعت عينيها على ثقب المفتاح ولكنها لم تر شيئاً.

كان يبدو وكأن المنزل يقطنه شخصان على الأقل. من هما؟ وأين هما في هذه اللحظة؟

وقبل أن تعود الى الشاطىء بحثت في كل موقع في الجزيرة، لكنها لم تجد أي شيء آخر قد تغير. كلا، كيف تحتمل أن تعود الى المنزل دون أن تجد إجابة لهذه الأسئلة؟ اذا كانت تود أن تحل هذا الغموض، فعليها أن تنتظر مكانها، لترى بنفسها هؤلاء المتطفلين.

ظلّت قابعة على الشاطىء بعين يقظة طوال ساعتين. وفي الثالثة من بعد الظهر أحسّت عينيها تؤلمانها من كثرة النظر صوب المياه اللامعة. أغلقت عينيها أمام هذا الوهج، وأطلقت زفرة تحوّلت فيما بعد الى تثاؤب. إن الجلوس ساكنة أمر متعب للغاية، واذا لم تحذر قد تستسلم الى النعاس.

أفاقت على شيء يمس نعل حذائها.

«كف عن هذا يا كيت».

همهمت وهي ناعسة:

ثم أدركت فجأة أنها ليست راقدة على الشاطىء بجوار منزلها، وان من يمسها الآن ليس أخاها الصغير. ترنّح قلبها بعنف، ثم فتحت عينيها.

«أتصوّر أنني قلت لك من قبل ألاّ تجيئي الى هنا وحدك».

جاء صوت ليام هاملتون صارماً.

«ليام!»

طرفت عيناها وهي تنظر وجهه المنحني الداكن ـ ذلك الوجه الذي توقّعت ألاّ تراه ثانية ـ واجتاحتها موجة من الارتياح والغبطة.

ليام سيساعدها. ليام سيعرف ماذا يجب أن تفعل... كيف تتخلّص من

هؤلاء المتطفلين على جزيرتها.

«أوه، ليام، لقد عدت! أنت الشخص الذي أحتاج إليه. حدث شيء مروّع. ستساعدني، أليس كذلك؟ يجب أن تساعدني!»

«بالقطع سأفعل ـ اذا استطعت ما هي المشكلة؟ ما هي أعمالك الشيطانية؟ ماذا تدبرين أنت و فلاقيا هذه المرة؟»

«لا شيء ـ لم نفعل شيئاً. ليست المشكلة من هذا النوع. أوه ليام، أنا سعيدة لرؤيتك. متى وصلت؟ هل غيّرت رأيك؟ هل ستقيم هنا في النهاية؟ هل أنت وحدك؟ أم أن الآخرين معك أيضاً؟ أين...»

«لو أعطيتني نصف فرصة، لقلت لك كل شيء. أنا سعيد لأنك سررت لرؤيتي. تصوّرت أن أحداً لن يحتفي بي بهذا الشكل».

«ماذا جعلك تتصوّر هذا؟ فما من أحد جدير بالاحتفاء مثلك. أنه سحر... معجزة... انه شيء رائع!»

وحتى تريه ما تعنيه عودته بالنسبة اليها ألقت بذراعيها حول عنقه واحتضنته.

ضحك وبادلها العناق. للحظات أحست بسعادة لا توصف. ثم بلطف نحاها جانباً وفي تلك اللحظة خبت لهفتها. وأدركت أنه ليس حليفاً تثق به. افتقدته منذ زمن طويل ـ أو هكذا تصوّرت لحظة استيقاظها... بل أنه رجل لم تقع عليه عيناها منذ شهرين.

«أنا آسف... كنت نصف نائمة... أنا لم أقصد...»

همهمت في خجل وهي تتفز لتبتعد عنه.

«لا داعي للاعتذار فأنا أحب الاستقبال الحار. والآن، قولي لي ما الامر؟ ما هي تلك المأساة البشعة يا صغيرتي شارلوت؟»

«ليس الأمر مزاحاً. انه أمر خطير للغاية. تعال لترى بنفسك».

وعندما بلغا مشارف الأرض المنشرحة، استدارت نحوه، وهي تتوقع أن تراه مدهوشاً كما كانت هي منذ قليل.

ولكن ليام قال في هدوء:

«يا له من تغيير مما كان عليه المكان منذ المرة الأخيرة التي كنا فيها سوياً».

«أنت لا تفهم. لم أفعل أنا كل هذا. فأنا لم أحضر منذ ذلك اليوم. لقد فعل ذلك شخص ما. شخص ما يعيش هنا الآن».

«شخص ما؟ ألا تعرفين من؟»

«لم أرها بعد. أعتقد أنها اثنان».

«لا تقولي هما يا شارلوت ـ بل أنا فقط الذي أعيش هنا. تصورت أنك خمنت ذلك. فأنا أقيم هنا منذ شهرين وأنوي أن أقيم هنا دائماً».

حملقت فيه غير مصدقة. وأخيراً استعادت نفسها بالقدر الكافي لتقول في وهن:

«لا يمكنك ذلك... لا يمكنك ذلك!»

«لماذا؟ أوه؟ بسبب الأرواح؟ لم تشكل لي أية مشكلة، واذا لم تعترض على بقائي هنا لا اتصور أن أحداً آخر سيفعل ذلك».

أخذت نفساً عميقاً ثم انفجرت قائلة:

«أنا أعترض، لا يمكنك أن تستحوذ عليها، فهذه جزيرتي أنا، سأبتاعها. لقد قلت لك ذلك. إن جزيرة سوليفان هي جزيرتي».

«كان هذا أملاً كاذباً يا شارلوت. أنا أعرف كيف تشعرين بالنسبة الى هذا المكان، ولكن يجب أن تدركي أنه ليس بوسعك أن تبتاعيه، يمكنني أن أفهم غضبك عندما ظننت أن أغراباً نزحوا الى الجزيرة. ولكن أنا لن أمنعك من المجيء».

«أطلاقاً، أنا لن احضر الى هنا ثانية. أنت ستغيرها...ستفسدها. أنا أحبها كما هي».

«ليس هذا هو ما قلته المرّة الماضية. كانت لك خطط عظيمة بالنسبة الى هذه الجزيرة.»

«ما كان يجب أن أكشف لك عن خططي ، فلولا ذلك ما فكرت في أن تعيش هنا».

«كلا، ربما ما كنت سأفكر في ذلك. ولكن ما فائدة خطط لا يمكنك تحقيقها يا شارلوت؟ عندما تفكرين في الأمر، ستكتشفين أنك لم تخسري شيئاً».

«من أين لك أن تعلم أنني لن أنجح في تنفيذ خططي؟»

راودتها فكرة جعلتها ترفع ذقنها في تحد قائلة:

«لا تكن واثقاً من أن بوسعك أن تحقق فكرتك. فليس من حقك أن تضع يدك على الجزيرة هكذا. يجب أن تشتريها، وربما لن يوافق مالكها على بيعها لك».

ألقى عليها بنظرة جعلتها تعتقد للحظة أنها لم تفقد كل الأمل بعد. ثم قال بهدوء:

«أنا بالفعل أملك سند ملكية الجزيرة. اذا كنت تشكين في هذا، تعالي لأريك إياه».

«أوه!»

أطلقت شارلوت صرخة لا إرادية.

ثم استدارت وركضت. ولكنه هذه المرّة لم يتعقبها. وعندما وصلت الى الشاطىء ألقت بنفسها في البحيرة.

٤ ـ أيام كنت غراً طائشاً تعوزني البراعة في الحكم.

شكسبير ـ أنطونيو و كليوباترا

وقعت شارلوت في اضطراب عاطفي كبير منذ عاد ليام الى الجزيرة، ولم يكن هناك من تبوح له بحزنها. وكان عليها أن تحتمله وحدها، ولم يكن بوسعها أن تحتمل سخرية فلافيا عند النوم بينما تحتوي شعورها الاليم بالضياع.

لم يكن بعودته قد حرمها فقط من الجزيرة، بل شوّه الصورة التي رسمتها عنه بعد أن استولى على مكان لا يبعد غير أميال قليلة عن الشاطىء، وكان يخصها بكل سند خلقي.

لم تكن لتزور الجزيرة للمرّة التالية عادة قبل أن تمضي عدة أسابيع، غير أن أباها، بعد عودتها السريعة المفاجئة من الجزيرة بعشرة أيام، أشار وهو يتناول طعام العشاء قائلاً:

«يمكنك أن تأخذي القارب غداً يا شارلوت إذا أردت ذلك».

وسألته:

«حقاً؟ حسناً!»

كانت قبل ذلك بوقت غير بعيد تشعر بالبهجة إذا ما سنحت مثل تلك الفرصة... ولكن هذا العرض الآن زاد من شعورها بالاحباط اذ كانت قد صممت على ألاّ تطأ قدمها أرض الجزيرة ثانية طالما هو هناك.

غير أن الأمر اختلف الآن بعد أن واتتها الفرصة وداخلها فيما بين العشاء والافطار شعور بامكان الرجوع عن مشروعها.

واستسلمت في النهاية لشعور قوي يغريها بأن تذهب لتستطلع نوايا ليام فهي لا تريد أن تراه بل تريد أن تعرف ما ينوي أن يفعله بجزيرتها.

وأحست بالألم عندما فكرت أنها ستضطر أن تدخل الجزيرة عن طريق القناة التي لم يجرؤ أحد سواها على أن يجتازها لسنوات طويلة، وتذكرت كيف اقتربت بعصبية من الشاطىء في أول مرة وكيف صارعت ضد الشجيرات الصغيرة.

وعندما بلغت المنزل لم تجد أي تغييرات واضحة منذ آخر مرة كانت هناك، ولكنها عندما اقتربت من الباب الأمامي وجدته هذه المرة مفتوحاً على مصراعيه، وسمعت صوت منشار... ووقفت في الردهة تحاول أن تتعرف على مصدر الصوت، بينما انطلق قطٌ في مقتبل نموه من غرفة الجلوس يشمشم حولها ويحك جسمه في ساقيها البنيتين العاريتين...

وانحنت لتداعب القط قائلة:

«يسبس...»

كان القط نحيلاً للغاية ولم تكن فروته في حالة طيبة وبدا كأنه حيوان ضال يعاني من نقص التغذية، لكنه لم يكن عصبياً أو نافراً، وربتت عليه بيدها فأنس لها في اطمئنان وتقدير.

وتوقف صوت المنشار وسمعت وقع أقدام وظهر ليام في أعلى السلم فتوقف لحظة وارتفع حاجباه، ثم هبط الى الردهة قائلاً:

«أهلاً وسهلاً... كيف حالك؟»

واحمرّ وجهها، وقالت في شيء من الحذر:

«صباح الخير».

«ما كنت أتوقع أن أراك قبل أسبوع أو أسبوعين... وظننت أنك لن تستطيعي الحضور إلا مرة في الشهر».

وعلّقت في شيء من القسوة:

«أعتقد أنك لم تكن تنتظر أن تراني بالمرّة».

«هل ذلك لأنك كنت مضطربة في المرّة الماضية؟ كان ذلك أمراً طبيعياً. وكنت أعرف أنك ستهدأين وتقتنعين عندما تجدين الوقت لتستعرضي الأمر من جديد».

وقبل أن تفتح فمها لتدحض هذا الكلام أضاف:

«كنت على وشك النزول لآخذ كأساً من الشراب. ماذا تشربين؟ كوكاكولا أم قهوة؟»

«لا أريد شيئاً، شكراً».

«لا؟ حسناً! لنذهب معاً الى المطبخ ونرى. هيا يا أوليفر!»

وأشار الى القط الذي جرى أمامهما على الفور تجاه المطبخ.

وقال ليام وهو يفتح علبة الشراب:

«من حسن الحظ أنك جئت اليوم اذ كنت بالأمس في المدينة وتركت لك ملاحظة على الباب».

ونظرت شارلوت الى أوليفر، وقالت:

«من أين حصلت على هذا القط؟»

«التصق بي أول مرة ذهبت فيها الى المدينة وكان من الواضح أنه ليس ملكاً لأحد وقد أحضرته ليؤنسني وسميته أوليفر لأنه كان هزيلاً أعجف، ولكنه الآن أفضل حالاً. أمازلت مصرّة على ألا تشربي شيئاً؟»

«لا... شكراً».

«اذن فلنخرج الى الهواء الطلق... وهناك بعض الكراسي المريحة في فناء البيت».

ولاحظت شارلوت أنه قام باخلاء مساحة كبيرة من الشجيرات والأعشاب التي كانت تنمو وراء المنزل منذ زيارتها السابقة. وكان هناك كرسيان من الألومنيوم، ومنضدة تحت شجرة من أشجار الياسمين الهندي العطرة، وسألته شارلوت بعد أن جلسا:

«هل يعرف أهل القرية أنك تعيش هنا؟ وهل استخدمت أحدهم في إصلاح المنزل».

ووضع كأسه على المنضدة، وهزّ رأسه قائلاً:

«انني أعتمد على نفسي في الوقت الحاضر، وعندما يصبح المكان جاهزاً للسكن أحتاج الى طاه وبستاني. ولكنني أفضل الاعتماد على نفسي في هذه المرحلة».

وابتسم ثم استطرد يقول:

«هل تظنين أنني لا أستطيع العيش بدون خدم؟ إن إعداد الطعام أو تنظيم المسكن من الأمور التي لا تحتاج الى مهارة كبيرة».

«تستطيع أن تحتمل لأسابيع قليلة. ولكن الأمر سوف يحتاج الى شهور لتنجز كل شيء بنفسك».

«أقدر أنه يحتاج الى حوالى ستة شهور شرط أن يتم تركيب المولد الكهربائي في وقت قريب».

«ولكن حتى لو توفرت الكهرباء لا تستطيع أن تعيش هنا وحدك لعدة شهور».

«انك لا تقدرينني حق قدري يا عزيزتي. فمن المعروف عني أنني أتم قراءة كتاب بين حين وآخر. ولا تظنين أنني محروم من المصادر».

«إنك لم تتعود هذا اللون من الحياة... وبرغم أننا اعتدناه، فاننا نشعر بالضيق في بعض الأحيان».

وعلق ساخراً:

«إنك شابة وطبيعي أن تشعري بالقلق، أما أنا فقد استمتعت بالحياة وذقت ألواناً عديدة منها».

وقالت في قسوة:

«أعتقد أن بك جنوناً، انني أعرف تماماً ما سوف يحدث، سوف تدخل تعديلات على المنزل وسوف تسيء إليه حتى تضيق به وتبيعه، وعند ذاك سوف ترحل وتبدد المال».

وضحك وقال:

«لا أظن أنني سأعاني من الضيق طالما أنك قريبة مني يا شارلوت».

وحدّقت في دهشة، قائلة:

«ولكنني لن أكون قريبة منك...»

«جئت اليوم».

واحمرّت خجلاً وقالت:

«جئت لأنني نسيت شيئاً هنا».

«صحيح؟»

«على الأقل، أظن ذلك، ولكن ربما أكون فقدته في مكان آخر».

«وما هو ذاك؟ ربما ساعدتك في البحث عنه».

وأخذت تفكر فيما عساها أن تكون قد نسيته؟ كتاباً؟ أم نظارة شمسية؟ أم مطواة؟ وعلق قائلاً:

«أحرى بالناس الذين تحمرّ وجوههم عندما يكذبون أن يلتزموا الصدق. لماذا لا تعترفين بأنك حضرت خصيصاً لتسألي الأسئلة التي لم تسأليها في المرة السابقة؟»

وصمتت لحظة ثم قالت:

«أريد أن أعرف، هل اشتريت الجزيرة أم استأجرتها؟»

«لا هذا ولا ذاك... لأنها كانت دائماً ملكي...»

وهتفت شارلوت قائلة:

«ملكك... دائماً؟»

وكانت هناك علبة سيكار على المائدة ففتحها، وأخذ واحدة منها، وقال:

«ولدت هنا، وماتت أمي هنا، وأنت تعرفين القصة».

«ولكن لا يمكن أن تكون ابن سوليفان! فاسمك هاملتون...»

«غيّر الأقارب الذين تبنوني اسمي، وخيّل اليهم أن ذلك قد يمنع الفضيحة».

وأشعل السيكار وبدأ يدخّن، وواصل يقول:

«إن أردت البرهان فسأريك شهادة ميلادي... ولقد تسجل اسمي فيها! ليام بادريك سوليفان، ابن سين وروزالين سوليفان، من جزيرة مانغو»

«لا أكاد أصدّق... أقصد أنني أصدّقك بالفعل... ولكن الأمر يبدو غريباً للغاية».

وتمتمت بعض الوقت ثم قالت:

«إذاً هذا هو الذي جعلك تبدو مخيفاً أول مرة رأيتك. كنت في غرفة الجلوس عندما...»

وتوقفت عن الكلام وهي تعض شفتيها، ولكنه أكمل لها:

«عندما أطلق شون سوليفان النار على أمي، نعم، إن هذه الواقعة صحيحة».

«ولكن، أن تعيش هنا بعد ما حدث! كيف يمكن لك أن تحتمل ذلك؟»

«بعد أكثر من عشرين سنة كما تعلمين، تنطفىء الذكريات... حتى المؤلم منها، وإذا بدا عليّ الاكتئاب في اليوم الأول فلانني كنت شارداً في التفكير فيما إذا كان المكان يستحق الاصلاح! وكنت أتوقع أن أجده في حالة سيئة بالطبع. ولكن آثار التصدع تتجسد بشكل متزايد للشخص الذي يكون قد شاهد المبنى وهو في وضع معقول».

وهيء لشارلوت أن إجابته كانت متناقضة فكيف يذكر المبنى في حالته الأولى بينما ينسى الذكرى السيئة لوفاة والديه. وواصل ليان يقول:

«وفي أي حال ليس لي خيار في الموضوع... هذا المكان هو آخر ما بقي لي من الميراث... أنا لست واسع الثراء كما يظنون ولذا فأنني ساصبح في أزمة مالية بعد إصلاح المنزل».

وتجاهلت تعليقه قائلة:

«هل تعني أنك ستصبح مفلساً حقاً أم تعني أنك ستعاني من ضائقة مالية».

«لن أكون في ضائقة مالية فحسب... ولكن معدماً تماماً».

وعلقت شارلوت:

«لو عرفت كيف يكون حال من يعاني المتاعب المالية لما سخرت بهذه الطريقة».

قالت ذلك وهي تتذكر قلق أمها وغضبها كلما جدّت مطالبات مالية تثقل كاهل ميزانية أسرتها المحدودة.

وعلّق ليام في مرارة:

«إن الضيق والحزن لا يفيدان شيئاً».

«ولكن إذا أصبحت مفلساً حقاً، فكيف ستعيش؟»

«لن أموت طالما أن هناك سمكاً في البحر وأستطيع أن أزرع البطاطا والبازلاء الهندية... وإذا ساءت الأمور فسأحاول أن أعمل».

«ولكن هل سبق لك العمل؟»

«لم يكن ذلك ضرورياً».

«أعتقد أنه من الصعوبة بمكان أن تجد فرصة هنا... سكان الجزيرة أنفسهم لا يجدون فرصاً كافية للعمل».

«أستطيع أن أزعم أنني سأجد فرصتي، فالشيطان يجد سبيلاً لأعوانه».

ونهض من كرسيه، وقال:

«سأشرب كأساً أخرى... هل تشربين الكوكاكولا الآن؟»

«حسناً... أشكرك!»

ولاحظت وهو يعود من المطبخ بعد ذلك بدقائق قليلة وقد حمل كوبين أنه تغيّر منذ لقائهما الأول... تخلّص من تلك النظرة المنغمسة في الملذّات وبدت قوته واضحة تكشف عنها عضلات كتفيه. كان يبدو أكثر قوة ولم تؤثر فيه آثار الأسابيع الخمسة الأخيرة من العمل المضني كما كانت تؤثر فيه ليالي السهر السابقة وأيام البطالة.

وسألته بعد أن جلس:

«هل قلت للآخرين، أنك تنوي أن تعيش هنا؟»

«لا... ولكنني قلت وداعاً... وتركت السفينة في ميناء فورت دي فرانس ولم أصرح لهم بوجهتي».

«ألم يضايق ذلك الأميرة مونتيفالكو؟»

وأجاب ساخراً:

«فقط لانها اعتادت التخلص من ضيوفها عندما تتضايق منهم، وليس حين ما يقررون هم الانصراف عنها».

وأخذت شارلوت تحتسي شراب الكوكا كولا لكنها لم تستطع أن تقاوم فضولها، فسألته:

«ألم تكن بينكما قصة حب؟ ولو إلى حدّ ما؟»

كان مستلقياً في كرسيه، وأجاب بدون أن يدير رأسه:

«لم يكن بيننا شيء من ذلك. فالحب يا شارلوت لا يحصل لكل شخص».

«ألا تريد أن تتزوج ويكون لك أطفال؟»

«لست حريصاً على ذلك بشكل خاص».

«ولكنك، هكذا... تصبح وحيداً في شيخوختك».

«عشت وحيداً معظم حياتي... وأفضل أن أعيش كذلك».

وحاول أن يغير الموضوع قائلاً:

«ما رأيك في النزول الى البحر قبل الغداء؟ هل أحضرت معك شيئاً من الطعام؟ إذا لم تكوني قد فعلت فبوسعي أن أعدّ بعض المأكولات».

كانت شارلوت قد أحضرت معها طعامها العادي برغم أنها لم تكن تعتزم أن تأكله على الجزيرة ولكن بعد أن أماط ليام اللثام عن شخصيته زال شعورها نحوه بالعداوة وأصبحت تحس بدلاً من ذلك بالعطف والفضول، وقالت:

«نعم، أحضرت بعض الطعام، ولكن إذا كنت لم تعمل قبل الآن فكيف تستطيع أن تمارس الطهو وتنجز كل هذا العمل؟»

«ربما لم يسبق لي العمل بالمعنى المتعارف عليه، ولكنني لم أكن كسولاً. فلقد مارست أشياء كثيرة».

«مثلاً؟»

«مثل التسلق والطيران والتزحلق على الماء، وغيرها... لننزل الى الماء!»

كانت شارلوت قد أمضت شطراً كبيراً من حياتها في البحر فاتقنت الغوص الى مسافة ثلاثين قدماً... وكانت تستطيع البقاء تحت الماء الى ما يقرب من ثمانين ثانية. وأدهشها أن وجدت ليام على المستوى نفسه. لم يكن هناك مكان في البحيرة تصل إليه إلاّ ويلحق بها وكلّ منهما يرى شبح الآخر يلقي بظلاله على قاع البحر.

ولم تستطع أن تكتم إعجابها ببسالته الفائقة التي لم تكن تتوقعها، وقالت وهما يتناولان الطعام:

«أستطيع أن أقرر الآن أن بوسعك أن تجد سبيلك لكسب رزقك، فبامكانك أن تكون صائد محار».

وابتسم ليام، وقال:

«تقصدين أن أبيع المحار الى السيّاح».

«لا... لا... أقصد المحار أو الأصداف الصغيرة التي تحتوي اللآلىء. يمكنك أن تصطاد الأصناف النادرة التي يطلبها الهواة».

«كم تساوي المحارة النادرة اذا أستطعت أن تعثري على واحدة؟»

«عثر أحدهم على محارة نادرة يطلق عليها لقب مجد البحار وبيعت بأربعمائة جنيه... إنها من أثمن أنواع المحار في العالم. وما وجد منها قبل الآن لا يزيد على خمس وعشرين واحدة».

وبدا عليه الاهتمام، وسألها:

«أين؟ في البحر الكاريبي؟»

«لا! المجد من سلالة ترجع الى جزر الهند الشرقية... ولكن مع ذلك توجد محارات نادرة في هذه المياه. وحتى تلك التي تعتبر شبه نادرة مثل المحار الذي يطلق عليه اسم الملك فينوس والمحار الخلزوني تقدر بمبالغ طائلة وخاصة إذا كانت سليمة».

«هل تجمعين المحار؟»

«لا أجمعها وهي حيّة... لا أحب أن أتسبب في قتل الحيوانات التي تعيش فيها. ولكنني أحتفظ بالمحارات الفارغة التي أجدها ولديّ كميات كبيرة منها».

«أعتقد أنني كنت ممن يبحثون عن المحار وأنا صبي ولكنني لا أذكر ذلك الآن».

«بامكانك أن تحصل على كتاب وتدرس كل شيء عن أنواع المحار وستجد فيه ما يشغلك خلال فترة المساء، وربما أصبحت متخصصاً في هذا العلم».

ونظر إليها في صمت لعدة لحظات ثم قال:

«أتريدين أن تحتويني يا شارلوت؟»

وأجابت:

«إنه مجرد اقتراح... واذا كنت تعتقد أنه اقتراح سخيف...»

«على الاطلاق، بل أنه لطيف جداً منك أن تبدي هذا الاهتمام... وربما أخذت بنصيحتك، وسأضعها موضع الاعتبار».

وحان وقت رحيلها فقالت:

«هل أعود مرة أخرى؟»

«في أي وقت تريدين طالما أن أسرتك تعرف بذلك».

«ولكن الجزيرة ستكون مكاناً مأموناً طالما أنك هنا».

كانا يقفان الى جانب قاربها، وقد بلغ الماء خصرها. وحملها الى القارب وهو يقول:

«ربما يصرّ بعض الناس على أنها ليست مكاناً مأموناً بعد، وأعتقد أنني لست الرفيق المناسب لفتاة شابة برينة».

«لو كنت سيئاً حقاً لما همّك أن يعرف أبواي، وفي أي حال فقد قابلتك أمسي وأحببتك».

«لا أظن أنها كانت تفعل ذلك لو عرفت أنني قد عانقت ابنتيها... وربما حدثتك أختك عن هذا».

وقالت شارلوت في صراحة:

«نعم... وكانت غاضبة... إنها تكرهك!»

«وهذا يوضح أنها أكثر تعقلاً منك يا طفلتي».

«كلاّ... فقد أحبّت فلافيا جون، أما أنا فلم أثق به على الاطلاق».

وأضافت في قوّة:

«ثم انني لست طفلة».

وأومأ قائلاً:

«حسناً. انك لست طفلة... ولكن من الأفضل أن يكون لك أصدقاء من سنك».

«مثل جون؟»

«جون مثال سيء للجيل الذي ينتمي إليه، ولكن من المؤكد أن هناك العديد من الشبان ذوي الخلق الطيب».

«ليس في هذه المنطقة، وفضلا عن ذلك...»

وتوقفت فشجعها على مواصلة الحديث قائلاً:

«وفضلاً عن ذلك...»

كانت تعتزم أن تقول: وفضلاً عن ذلك فإنه لو كان هناك شبان فان أبي لن

يسمح لنا بالاختلاط بهم. ولكنها بدلاً من ذلك قالت:

«لا شيء، ينبغي أن أنصرف الآن... وداعاً»

وفي اليوم التالي لعيد ميلاد شارلوت السابع عشر في نهاية ذلك الشهر... كسرت ساقها اليمنى... ولحسن الحظ كان الكسر بسيطاً في العظام الخارجية من الساق، ولم يمض وقت طويل حتى استطاعت أن تتحرك بصعوبة في البيت وعلى الشاطىء، وإذ وضعت ساقها في الجص كان من الصعب عليها أن تركب زورقها الصغير.

وعندما شفيت ساقها كانت قد مضت فترة تصل إلى عشرة أسابيع منذ آخر مرة زارت فيها الجزيرة.

وفي اليوم التالي لازالة الجص كانت تجلس في مرفأ الميناء تفكر فيما إذا كان ليام قد أحسّ بشيء من الحيرة بسبب غيابها الطويل، أو أنه لم يهتم على الاطلاق، وحينئذ لاح على مرأى البصر قارب بمحاذاة الشاطىء، وعرفته فوراً، انه قارب الصيد الأزرق الذي كان ليام قد حصل عليه كسائح متجوّل.

وهيء لها أنه كان يمرّ متجهاً نحو الجنوب وكاد قلبها يقنط من اليأس ولكنه حوّل طريقه واتجه نحو الميناء، ولمعت عيناها وعادت إليها حيويتها وانتظرته لتمسك بحبال المرساة. وأحست بأن السماء اكتست بزرقة صافية وأن مياه البحر قد زادت لمعاناً وأصبحت التلال أكثر خضرة.

وقال ليام عندما أدركها في الميناء:

«أهلاً أيتها الغريبة! كيف حالك؟»

«انا بخير... وكيف حالك أنت الآن؟»

«على ما يرام! ماذا حدث لساقك؟»

«لقد كسرت، وكانت في الجص... وهذا هو السبب في أنني لم أزرك».

«يالك من مسكينة! يا لسوء الحظ! ومع ذلك فانها تبدو كأنما لم يعبها اذى».

وجلس القرفصاء لينظر اليها، وقال:

«أين كان الكسر؟»

ووقفت شارلوت على اليسرى، ورفعت اليمنى لتحدد له بالضبط أين كان

الكسر.

وتحسس ليام بأصابعه مقدمة سائها، وقال:

«ولكن كيف حدث ذلك؟»

«كنت ألهو مع الأولاد وسقطت عن سطح المطبخ».

وعلقّ قائلاً:

«كبرت على هذه الألعاب والشقاوة التي تخص الصبيان».

«نعم... فعمري سبعة عشر عاماً الآن».

ووضعت قدمها على الأرض وتركت يدها على كتفه للحظة أطول، وأحسّت بأن كتفه قوية كالصخر. ونهض يقول:

«حقاً بلغت السابعة عشرة؟ كنت أحسّ بأن هناك شيئاً تغيرّ فيك. أما كان ينبغي أن تلبسي قبعة؟»

«قبعة... لماذا؟»

«لتمنعي تجاعيد الوجه من الظهور... فالنساء عندما يكبرن لا يستطعن أن يهملن مظهرهن كما تفعل فتيات السادسة عشرة».

وصاحت تقول:

«أوه، إنك متوحش!»

واستأنف الحديث قائلاً:

«كنت أظن أنك لم تحضري لأن أبويك لم يسمحا لك بذلك».

«هل افتقدتني؟»

«كانت هناك لحظات أحسست فيها إنني بحاجة الى أن أجد شخصاً أتحدث إليه... حتى لو كان هذا الشخص أنت».

«أشكرك كثيراً... واذاً فلن أفكر في زيارتك مرة أخرى».

«أفهم من هذا أن أبويك وافقاً على أن تزوريني؟»

«لم أطلب إليهما ذلك بعد... فلم يكن لهذا الطلب معنى حتى تتحسن رجلي».

«إذن سأطلب إليهما أنا بنفسي».

وبدأ يسير قرب الميناء، فأمسكت بذراعه تقول:

«هناك شيء لا تفهمه».

«هل تعنين أن أباك من المعارضين للصداقة بينك وبين الآخرين؟»

«نعم الى حد ما... وكيف عرفت ذلك؟»

«أحسست به إحساساً داخلياً».

«قد لا يكون لطيفاً تجاهك ولكنه لا يقصد أن يكون فظاً، والأمر لا يزيد عن كونه متقلباً بعض الشيء».

«هكذا يكون الأذكياء أحياناً».

وربت على يدها يطمئنها:

«لا تقلقي! فلن أسبب له أي ضيق».

كانت تخشى ألا يصمد ليام للعداوة التي يظهرها أبوها لأي شخص غريب إذا ما أحسّ نحوه بشيء من عدم التقبل.

وظهر رافاس مارتن في الشرفة المكشوفة وهما يسيران تجاه المنزل فأحسّت بشيء من الذعر... وبدأ يهبط الدرج ليقابلهما... وكانت شارلوت تأمل في أن تكون أمها موجودة في تلك اللحظة حين يتقابل الرجلان. وأخذ أبوها يتفحص ليام بنظرة غير ودية ولكن ليام صمد ولم يبد عليه أي اضطراب، وقال:

«أأنت السيد مارتن؟ أنا هاملتون الذي يسكن جزيرة مانغو. كنت أقرأ كتابك عن تاريخ جزر الأتيل الصغرى ولديّ بعض الوثائق التي كنت أعتزم تقديمها الى متحف فكتوريا الملكي، ولكن خطر لي أنك ربما تجد فيها ما يهمك، وقد تستحق أن يشار اليها في الطبعة المقبلة من مؤلفك!»

«هاملتون! جزيرة مانغو؟ المعروفة باسم جزيرة سوليفان على ما أعتقد؟ والتي تقع على الساحل على مسافة من هنا. كنت أظن أنه لا يقطنها أحد».

«إلى وقت قريب مضى، ولكنها لم تعد كذلك الآن، فأنا أقطن هناك وان كنت لا أريد أن أذيع النبأ، وأرى أن ما يشاع عن الجزيرة من أنباء مخيفة يعتبر في الوقت الحاضر ميزة من وجهة نظري، لأنني أريد ألا يقطع أحد عليّ هدوئي».

ونظر الى شارلوت، وواصل حديثه قائلاً:

«ومع ذلك فليس لدي اعتراض في أن تحضر ابنتك الى الجزيرة من حين الى حين

فقد فهمت أنها تهتم بدرجة واضحة في مجال دراستي الرخويات البحرية».

وأحست شارلوت بشيء من المفاجأة عندما نسب اليها الاهتمام بمجال دراسته. وكان لذلك أثر السحر على أبيها... وبدلاً من أن يسأله كيف ومتى بدأت الصداقة بينهما، ولماذا لم تحدثه ابنته بذلك دعاه الى الدخول وطلب الى شارلوت أن تحضر له بعض الشراب، وكانت هذه أول مرة ترى فيها شارلوت أباها على هذه الدرجة من الكرم.

وعادت أمها ومعها فلافيا من مهمة كانتا تقومان بها في القرية، وقال قبل أن يقدم رافاس زوجته اليه:

«تقابلنا أنا وزوجتك من قبل، فقد حضرت الى هنا مرة ولكنك لم تكن موجوداً، كيف حالك يا سيدة مارتن؟»

وابتسمت في شيء من التشكك، وقالت:

«كان ذلك يوم أن نقلت الى المستشفى يا رافاس، وقد نسيت أن أخبرك».

«كل ما قيل عن ذلك المرض كان ضجيجاً لا مبرر له، انا بصحة كاملة. ما رأيك في أن تتناول الطعام الآن معنا يا هاملتون؟»

لم يدرك ليام أن الآخرين حوله كانوا قد صعقوا من المفاجأة لتلك الحرارة النادرة التي أبداها الأب تجاهه، وأجاب:

«أقبل الدعوة بكل سرور شرط ألا يسبب هذا إزعاجاً لبرنامج المطبخ».

وعلقت هيلن:

«ليس هناك أي ازعاج».

وقال زوجها:

«هيا بنا الى المكتبة لنتحدث في حرية هناك».

ومضى الرجلان، وأسرعت هيلن الى المطبخ لتعطي بعض التعليمات الى فيوليت، ثم عادت وقالت:

«فلافيا، انهضي وأحضري بعض الأزهار للمائدة! شارلوت. أسرعي لمعاونة فيوليت، من حسن الحظ أن العشاء سيتأخر حتى الثامنة. وكنت أتمنى أن يكون هناك متسع من الوقت لتصنع شيئاً خاصاً».

وطمأنتها شارلوت:

«لا تتضايقي يا حبيبتي. فان ليام لا يكترث بما يقدم له على المائدة».

كانت شارلوت على صواب، فقد شكر ليام مضيفته قبل أن ينصرف بحرارة قائلاً:

«كانت هذه أفضل وجبة قدمت لي لأسابيع طويلة مضت يا سيدة مارتن، قد تعلمين أنني أعيش عيشة على جانب كبير من البساطة والقسوة في الوقت الحاضر، ولكنني اتمنى أن أرد كرمك عندما تنتظم حياتي».

والتفت الى زوجها قائلاً:

«قد لا أجد الفرصة للحضور لفترة معينة وفي الوقت نفسه لا أود أن أرسل اليك هذه الوثائق بطريق البريد فقد يكون من المناسب أن يحضر أولادك لأخذها».

وأجاب رافاس:

«بالتأكيد... بالتأكيد... وليكن ذلك غداً إذا كان يناسبك».

«حسناً... ولكن قد يكون من الأفضل أن يعهد الى شارلوت بذلك. فالطريق خلال الجزيرة وعر بعض الشيء ولها به خبرة من قبل».

كانت شارلوت تظن أن ليام سيكون في انتظارها عندما تصل الى جزيرة سوليفان في صباح اليوم التالي، ولكنه لم يكن هناك، وعلى ذلك اتجهت الى منزله وصارت تنادي:

«يو... هو... انا هنا»

ولكن أحداً لم يجب... ولم تمض لحظات حتى هبط القط مسرعاً عبر الدرج وأخذت شارلوت تداعب أسفل ذقنه قائلة:

«أهلاً... يا أوليفر... أين سيدك؟»

ونادت ولكنها لم تحظ بإجابة للمرة الثانية... واجتازت المطبخ الى الباب الخلفي ووضعت يديها حول فمها وصفرت صفارة نداء ولكنها لم تسمع إجابة من خلال الأشجار، كانت الجزيرة ساكنة كما عهدتها عندما كانت تأتي وحدها الى هناك، فيما عدا صوت أنفاس أوليفر... ونظرت الى القط تقول:

«ليس معقولاً أنه ما زال في الفراش».

وقرّرت أن تصعد الى الطابق العلوي لترى اذا ما كان قد استغرق في النوم، لم تكن غرفة النوم مغلقة بالمفتاح، ونقرت على الباب وانتظرت بعض الوقت ثم فتحت الباب، كان الفراش يدل على أنه قد أمضى ليلة قلقة ولكنه لم يكن هناك الآن.

وفكّرت في أن ليام لابد أن يكون موجوداً في مكان قريب، فالفراش والصندوق والحقائب والمصباح على الأرض، كانت الأشياء الوحيدة الموجودة في غرفة النوم وكانت الغرفة تعكس مظهر حجرة خالية في بيت مهجور. لابد أن أعصاب ليام من حديد أو أنه لا أعصاب له بالمرّة. أيكون باستطاعته أن يواصل العيش هنا بدون أن تؤثر فيه الوحدة أو القلق؟

وأحست بالضيق والحيرة بعدما بحثت في سائر الغرف وفي جزء كبير من الجزيرة بلا جدوى. هل تعمدّ أن يختبىء؟ هل أراد شيئاً من المزاح؟ واستبعدت الفكرة، أيمكن أن تكون وقعت له حادثة كالسقوط من فوق شجرة أو جرح جرحاً بليغاً وهو يقوم بإزالة الشجيرات والأعشاب؟

وأحست بذعر حقيقي، وأخذت تعدو بأسرع ما تستطيع بدون اكتراث بالجروح والخدوش الناشئة عن اختراق ذلك الممرّ غير الممهد، وهي تخشى أن تتحقق مخاوفها.

وقادها الممرّ الى الشاطىء الثاني للجزيرة. لم تكن شارلوت قد حرصت على أن تزوره مرة ثانية بعد الاستكشاف الأول الذي قامت به للجزيرة بسبب الشجيرات الكثيفة والأعشاب التي كانت تجعل الوصول إليه صعباً. كان من الممكن الوصول إلى المكان عن طريق البحر ولكنها كانت تخشى أن يلحظ قاربها بعض المتسكعين على الرصيف في قرية الصيد على الجانب الآخر من القناة لو سلكت هذا الطريق.

وأخذت تهرول على الطريق الحلزوني الضيق وهي تتوقع عند كل انحناءة أن تصل الى نهاية الممرّ ولكنه أدى في النهاية الى الشاطىء الصغير، وهناك كان ليام يرقد متمدداً بقامته الكاملة على الرمال.

وأحست بالذعر عندما رأته في وضع الانبطاح، كان عارياً فيما عدا منشفة تحيط

بخصره وكان يرقد على بطنه وقد أسند رأسه على أحد ذراعيه.

وانحنت فوقه وهي تلهث فتململ في مكانه. لم يكن فاقد الوعي وإنما كان فقط مستغرقاً في نوم عميق، وركعت على ركبتيها تختلس النظر الى وجهه فاستدار جانباً بحيث ظهرت إحدى وجنتيه وعين مغلقة من المكان الذي ركعت فيه.

كان من الواضح أنه لم يحلق ذقنه منذ زيارته لبيتهم في اليوم السابق وكان فكه من الخارج خشناً كما رأته لأول مرة، رموش عينيه طويلة وكثيفة كرموش فلافيا وأنفه مقوساً بارزاً ينم عن القوة والرجولة. وبدت بشرته قاتمة كبشرة فيوليت ولكنها غير مكتنزة بالدهن مثلها.

ومست شارلوت بأصابعها عظام كتفه في لطف تقول:

«انهض يا ليام!»

وبدأ يتحرك في بطء، وهو يتمتم مستفسراً بدون أن يفتح عينيه:

«مم؟»

وكرّرت:

«ليام! استيقظ!»

كانت يدها لا تزال على كتفه، على استعداد لتوقظه بطريقة أكثر قوة.

وكان مستغرقاً في النوم، ودهشت عندما استدار فجأة على ظهره وجعل يده تتسلل الى ذراعها وتجذبها نحوه قائلاً:

«كم الوقت الآن؟»

وأحسّت بشيء من الاضطراب جعلها تعجز عن أن تجيب على الفور، ولم يكن بوسعها أن تخلص نفسها لتفرد قامتها، كانت تتوقع أن يفتح عينيه، ولكنه أبقاهما مغلقتين لأنه كان يستطيع من خلال الوهج الساقط على جفونه أن يخمن أنه يرقد ووجهه تجاه الشمس ويخشى أن يبهره الضوء، وقد وضع ذراعه الأخر تحت خصرها قبل أن تتمكن من الكلام.

وخرج من شارلوت صوت بين اللهاث والصرير وفتح ليام عينيه وتكوّر جسمه كأنما أصابته طعنة رمح وفي حركة سريعة خفيفة انتصب جالسا

يقول:

«ما الذي تفعلينه؟»

«لم أفعل شيئاً... على العكس... أنت الذي فعل... كنت أوقظك».

«حسناً... إذا أردت أن توقظيني فعليك أن تركليني بقدمك».

«لقد مسست ظهرك... ولكنك استدرت فجأة وجذبتني... لا بد أنك كنت تحلم... لا بد أنك ظننت أنني تارا».

ونهض ليام يحكم الفوطة حوله وهو يقول:

«لا... لقد ظننت... نعم! ...محتمل... لا أستطيع أن أتذكر... انني آسف... لابد أنني سببت لك بعض الانزعاج... أعتذر... كم الساعة الآن؟»

«حوال الحادية عشرة، على ما أظن، جئت مبكرة على غير العادة».

«يا لله! هل تأخرت الى هذا الحد؟ اصنعي بعض القهوة بينما أقوم بحلاقة ذقني».

وأخذ يشق طريقه تجاه المنزل أمامها.

وعندما اقتربا من المنزل، قال:

«لن أتأخر أكثر من خمس دقائق، وأنا أشرب قهوتي بدون حليب».

وعندما هبط الدرج كان يرتدي قميصاً وبنطلونا قصيراً. وقد مشط شعره، وقال:

«أرجو ألا يضايقك اذا كنت سأحلق ذقني هنا».

وهزّت رأسها بالنفي.

ووقف يحلق ذقنه أمام مرآة صغيرة معلقة على مسمار ثبت في الحائط

وشردت بفكرها لحظة وتذكرت أنها قد عرفت خشونة تلك الذقن مرتين بينما أختها فلافيا وهي في التاسعة عشرة من عمرها لم تعرف سوى قبلة ناعمة على وجنتيها وأحست بأنها بذلك أكثر خبرة وسعادة.

وقطع ليام أفكارها يقول في قوة:

«تنبهي فالغلاية تغلي على النار!»

وأحسّت أنه بذلك قد جعلها للمرة الثانية تشعر بأنها ما زالت صغيرة لم تنضج بعد.

وسألته وهي تعد القهوة:

«أحقاً لديك بعض الوثائق التي قد تهمّ أبي؟»

«بالطبع... وإلا فلماذا قلت ذلك اذا لم يكن عندي؟»

«حسناً! كان أسلوبك وأنت تتحدث كخبير في علم دراسة المحار».

«كلا على الاطلاق... قلت فقط انني أدرس الرخويات البحرية وهذا صحيح. وأعرف عنها الآن أكثر بكثير مما كنت أعرفه عندما كنت هنا في المرة السابقة».

وقدم لأوليفر بعض الحليب المحفوظ وأخذ يشرب قهوته.

وقالت شارلوت:

«كيف أحبك أبي؟ أنت يا من ...»

وأكمل لها:

«أنجح في التعامل مع كل الناس».

«حسناً ربما تتهمني بالوقاحة. ولكنني لم أكن أقصد ذلك، فقط أقصد القول إن أبي عادة لا يحب أي شخص غريب ولم أكن أعتقد أنك ستشذ على القاعدة لأنك أنت وهو على النقيض، قطبان متنافران».

«بالنسبة الى المرض الذي أشارت اليه أمك والذي قال أبوك انه شيء تافه... ماذا كانت أعراضه؟»

وسردت شارلوت ما سبق أن أخبرها به أخوها وما شهدته بنفسها ثم قالت:

«ولم تسأل؟»

«لأنني أحسست أن أباك يعاني من حالة قلق ومن الضروري أن يهتم بوضعه الصحي وأرى أن تقنعوه بأن يضع نفسه تحت الرعاية الطبية».

«انه عنيد للغاية، حاولت أمي ذلك، ولكنه لا يقتنع، لا أريد أن أتحدث عن أبي هكذا... فأنا أحبه كثيراً وكلنا نحبه».

وشرب ليام فنجانه بدون أن يترك فيه بقية ثم قال:

«نسيت أن أحضر لك الأوراق ... سأصعد لأحضرها الآن».

وعندما رجع قال:

«ليّ ارتباط بالذهاب الى المدينة اليوم يا شارلوت ويؤسفني أنني لا أستطيع

أن أدعوك لتناول الطعام».

كانت شارلوت تتوقع أن تمضي اليوم كله على الجزيرة ولم تستطع أن تخفي إحساسها بالاحباط

وأعطاها المظروف الكبير الضخم المحفوظ في حقيبة من البلاستيك وسارا معاً الى البحيرة، وقال لها عند حافة الماء:

«تعالي كلما استطعت ذلك، فأنا لا أخرج كثيراً ومرحباً بك دائماً».

وابتسمت وهي تقول:

«حسناً... أشكرك... الى اللقاء يا ليام!»

وهذه المرة لم يحملها الى زورقها واكتفى بأن قال:

«وداعاً».

وأخذ يخوض في المستنقع، واعتلى قاربه وقال:

«أنت أولاً...»

وكان يعني بذلك أنها ينبغي أن تسبقه بقاربها عبر القناة.

وأحست شارلوت احساساً لا يكذب أن قصة ارتباطه بالذهاب الى المدينة لم تكن إلا كذبة بيضاء انتحلها للتخلص منها... وأنه ربما قام بجولة قصيرة في القرية ثم عاد الى الجزيرة. كانت في حيرة بسبب تلك المناورة وهي تعبر المنطقة المعروفة باسم أولدمانز بوينت لتقترب من الميناء فلم تلحظ شبحاً يخرج مسرعاً من بيت مارتن ويهرول الى الشاطىء ليقابلها. كان الشيخ فيوليت تقول في صوت غريب أجش:

«أسرعي يا حبيبتي، أسرعي!»

واكتشفت شارلوت أن فيوليت كانت تبكي وترتعد في تأثر بالغ، وصاحت شارلوت:

«ما الخبر؟ ماذا حدث؟»

وساعدت شارلوت لتصعد الى الميناء ثم أمسكتها بين ذراعيها وقالت في صوت غالبه الحزن:

«انه أبوك يا طفلتي... ساءت حاله بدرجة كبيرة. ونقلته سيارة الاسعاف الى

المستشفى... وذهبت أمك معه ثم أخذت فلافيا الأولاد في سيارة تاكسي. وهناك تاكسي آخر في انتظارك يا عزيزتي... ليس أمامنا وقت... سأذهب معك!»

مات رافاس مارتن قبل الغروب بدون أن يستعيد وعيه بعدما أصيب بالنوبة القلبية الثانية التي كانت أكثر خطورة من الأولى ودفن ظهر اليوم التالي، وعادت أسرته التي فاجأتها الصدمة الى البيت.

ظلت هيلن مارتن لأيام عديدة تبدو كأنها لم تتأثر لوفاة زوجها. كانت تواسي الأطفال وفيوليت وتقوم بأعمالها العادية أو تجلس على الشرفة تحدق نحو البحر في هدوء غير طبيعي بعينين لا تدمعان.

وفي إحدى الليالي أيقظ كيث شارلوت باكياً يقول:

«ماما تبكي! ماذا نفعل؟»

وأيقظت شارلوت فلافيا. وذهب الثلاثة الى غرفة أمهم. لكن الباب كان مغلقاً ولم تسمح لهم بالدخول ووقفوا لفترة طويلة أمام الباب يستمعون بلا حول ولا قوة الى نحيبها المكتوم وأخيراً ذهبوا الى الفراش، وأخذت شارلوت تعانق كيث وتطمئنه حتى نام بين ذراعيها.

كان وجه هيلين في الصباح التالي يبدو وقد أنهكه الحزن، لكنها تخلصت من النظرة الشاردة في عينيها. وأحست شارلوت بأن تلك النظرة كانت أكثر اقلاقاً من النحيب العنيف طوال الليل.

وذهبت هيلين الى غرفة مكتب زوجها بعد الافطار ومكثت هناك تفحص أوراقه حتى وقت الغداء.

وبعد الوفاة بحوال أسبوعين، وكانت قد أرسلت الأولاد الى المدينة بقائمة للطلبات أخبرت ابنتيها أنها تريد أن تناقش المستقبل معهما وبدأت تقول:

«أرى أنه من اللازم أن ننظر الى المستقبل وان كنا لا نحس بالرغبة في ذلك... لا أريد أن يحمل الأولاد الهمّ ولكنكما أنتما الاثنتين أصبحتما كبيرتين الآن بدرجة تؤهلكما لمواجهة الحقائق أيّا كانت... بل أرى أنه من الواجب أن تشاركا بالرأي في اتخاذ القرارات الهامّة. ان ما لدينا من النقود لا يكفينا إلاّ لأشهر قليلة، والمال الوحيد الثابت الذي نملكه هو هذا البيت وهو لا يساوي كثيراً في الوقت الحاضر

ولكن قيمته قد ترتفع كثيراً إذا ما قام شخص باستثمار الخليج، وأعتقد أن ذلك سيحدث عاجلاً أو آجلاً لأنه من أجمل المناطق في الجزيرة. لكننا لا نستطيع أن نعيش على ذلك الأمل فليس لدينا الوقت... واذن سيكون علينا أن نقبل أعلى مبلغ يقدم لنا ثمناً له ونعود الى انكلترا، ولدينا مبلغ قليل في البنك... أما ثمن البيت فينبغي أن يغطي تكاليف رحلة العودة على احدى سفن الموز».

«ولماذا انكلترا؟ لم لا نذهب الى الولايات المتحدة؟»

قالت ذلك فلافيا... وكانت ترى أن نيويورك هي المكان الذي تطمح به.

وأحسّت شارلوت بالروع اذ رأت أمها تفكر في العودة الى الوطن فقالت: «هل هذا ضروري يا أمي؟ المطر يسقط دائماً في انكلترا، وأعتقد أنها الآن أكثر سوءاً عما كانت عندما هجرتها أنت وأبي».

كانت شارلوت قد عقدت صداقات مع عدد من سكان الجزيرة الذين هاجر بعضهم الى انكلترا وبرغم أنهم كانوا يستمتعون بالحياة هناك فان وصفهم في الرسائل أقنعها بأنها سوف تشمئز من الحياة هناك.

وعلقت هيلن في ابتسامة باهتة:

«المطر لا يسقط هناك دائماً يا حبيبتي... والطقس في بلادنا لطيف وعلى كل فانكلترا ليست كاملة، بل ليس هناك مكان يتوفر له الكمال، ولكنها أفضل من أماكن عديدة عن أنها وطننا الذي ننتمي إليه».

وعلقت شارلوت:

«انا أنتمي الى هنا».

وردّت فلافيا:

«لحسن الحظ أنا لا أنتمي إلى هذه المنطقة».

وعلّقت الأم:

«ألا تريان أنكما تتمركزان حول نفسيكما؟ ألم تنسيا الصبيان؟ أعتقد أن انكلترا هي أفضل مكان لهم».

كن يجلسن على السرير في غرفة هيلين ودخلت فيوليت لتخبرهن أن

السيد هاملتون في الخارج ينتظر أن يقابل السيدة مارتن، وقالت هيلين:

«لابد أنه سمع بخبر الوفاة وأنه جاء للتعزية».

وقالت فلافيا:

«هل نعتذر بأنك نائمة؟»

«لا، من الأفضل أن أقابله، ويمكنكما أن تحضرا كذلك».

وبدا أن ليام لم يكن قد سمع الخبر فلم يظهر بمظهر من جاء ليبدي التعزية، وألقى عليهن التحية قائلاً:

«طاب وقتكن».

ثم قال لهيلين:

«جئت أطلب مساعدتك يا سيدة مارتن، هل بوسعي أن أتحدث اليك حديثاً خاصاً؟ ربما استطعنا أن نتمشى على الشاطىء لمدة خمس دقائق؟»

«لا بأس إذا كنت تريد ذلك».

وتمتمت فلافيا بعد أن مضت أمها مع ليام تقول:

«ماذا يريد يا ترى؟»

وعلقّت شارلوت:

«وكيف أعرف؟»

ورفعت شارلوت نفسها على الدرابزين الذي يحيط بالشرفة وجلست وظهرها يستند الى إحدى الدعامات التي ترفع السقف وقالت:

«أما زلت تكرهينه؟»

«نعم!»

«لماذا؟»

«أنت تعرفين لماذا؟»

«أرجوك أن تقولي لماذا؟»

وأجابت فلافيا في قتامة:

«النمر لا يغيّر البقع التي على فرائه... لا أثق به!»

«انه الصديق الوحيد».

«قد يكون صديقك... ولكنه ليس صديقي».

وكان على الفتاتين أن تحبسا رغبتهما في الاستطلاع لأكثر من خمس دقائق. وظلّ هاملتون وهيلين يروحان جيئة وذهاباً حوال نصف الساعة على الشاطىء مشغولين بحديثهما الخاص، وتوقفا عند نقطة معينة ووقفا ينظران تجاه البيت لعدة دقائق قبل يستأنفا تجوالهما، وتوقفا بعد ذلك للمرة الثانية، وجلس ليام القرفصاء وبدا كأنه يحدث علامات على الرمل المبتل على خط المدّ والجزر، والى جانبه انحنت السيدة مارتن تتابع ما يقوم به.

ودمدمت فلافيا في قلق تسأل:

«ماذا يناقشان، وأيّا كان موضوع المناقشة أنا لا أفهم لماذا لا يسمح لنا بالمشاركة؟»

ونزلت شارلوت من مكانها على الدرابزين وهي تقول:

«انهما عائدان...»

وعندما اقترب هاملتون وهيلين نظرت شارلوت الى وجه أمها تحاول أن تستطلع ما يساعدها على استشفاف موضوع المحادثة السرية بينهما.

وقالت هيلين وهي تصعد الى الشرفة:

«تعالا واجلسا يا ابنتي».

وبدا كأنها في شبه مأزق:

وجلست شارلوت وفلافيا تحدقان تجاههما، واستند ليام الى الدرابزين وأشعل سيكارا.

وبدأت هيلن تتحدث قائلة:

«يعرف السيد هاملتون بخبر وفاة بابا... ولقد فكر في أننا قد تصادفنا بعض المصاعب، واقترح أحد الحلول لمشكلاتنا».

وأضاف هاملتون:

«ولمشكلتي أنا أيضاً».

ونظرت إليه هيلن تقول:

«هل أنت متأكد تماماً من أن...»

وقاطعتها فلافيا:

«أرجوك أن تتجهي الى الموضوع مباشرة يا ماما؟»

وبادر ليام الى إشباع فضولها قائلاً:

«باختصار... طلبت الى أمكما أن تحضروا جميعاً لتعيشوا معي في جزيرة سوليفان».

«أوه...لا!»

«أوه... نعم».

أجابت الفتاتان بالدرجة نفسها من القوة ولكن التناقض بين ردّ فعلهما كان واسعاً للغاية فقد أحسّت فلافيا بالرعب بينما عبرت شارلوت عن الترحيب الكامل.

وسأل ليام بنبرة يغلبها المزاح:

«ولم لا يا آنسة مارتن؟»

«لأنني لا أريد أن أصبح سجينة في جزيرتك، انا أشعر بالمرض لأننا منعزلين عن كل شيء. أريد أن أعيش كما يعيش الآخرون».

وصاحت هيلين توبخها:

«فلافيا!»

وأصرت فلافيا على مواصلة الكلام قائلة:

«أريد أن أحصل على عمل... أريد أن أعتمد على نفسي».

وعلقّ ليام بجفاء:

«بالطبع... ولكن ذلك سيكون من الصعوبة بمكان إذا لم تحصلي على مؤهلات. لماذا لا تدعين أمك تشرح فكرتي بالكامل قبل أن تتخذي قرارك؟»

وعلقّت شارلوت تقول:

«أعتقد أنها مدهشة».

وحذّرها ليام قائلاً:

«قد تغيرين رأيك إذا عرفت قدراً أكبر من التفاصيل».

٥ ـ الشياطين ليست سوداء جداً كما ترسم.

توماس لودج، «مارغريت الأمريكية»

قالت هيلين:

«أرجو أن تصمتا، انه لكرم كبير من السيد هاملتون أن يشغل نفسه بمشكلاتنا، وينبغي أن يكون القرار في صالح الأغلبية».

وقالت شارلوت:

«أنا آسفة».

وأصرّت فلافيا على عنادها بالصمت.

ووجّه ليام الكلام الى فلافيا:

«مواردي المالية ليست في حالة طيبة الآن والبيت الذي أسكنه بني ليكون قصراً لأسرة غنية لديها خدم وحشم... وهو كبير عليّ في أحوالي الراهنة، وأعتزم تحويله الى فندق».

وأحس أن شارلوت قد ذعرت، فنظر إليها وقال:

«إذا فكّرت جيداً ستجدين أنه مشروع أفضل من مشروع صيد المحار».

وسكت برهة، ثم قال:

«تعودتم على نمط غريب من الحياة يجعلكم بحاجة الى فترة لالتقاط الأنفاس قبل أن تتخذوا قراركم بشأن المستقبل. ولهذا دعوتكم لتعيشوا معي أولاً لمدة ستة شهور».

ونظر الى هيلين واستطرد قائلاً:

«ربما كنتم تتخيلون أن نمط حياتكم الحالي يمكن أن يستمرّ لسنين طويلة ولم تفكّروا في أي نوع من التغيير».

وأومأت ثم طأطأت رأسها وواصل يقول:

«انا لا أستطيع دفع الأجور الباهظة التي قد تقنع السكان المحليين بأن يتغلبوا على مخاوفهم. ولكن بعد أن تعيشوا على الجزيرة فترة معينة سوف يدركون أن مخاوفهم وهمية ويقبلون العمل بالأجور العادية. وسوف تعاونونني في تنظيم المنزل ولن يتطلب ذلك قدراً كبيراً من المهارة، فأغلبه العمل يدوي، وسبعة أشخاص أفضل من شخص واحد. ليتنا نكون ثمانية إذا قبلت فيوليت الذهاب معنا».

واعترضت فلافيا:

«انك تريد أن تنقلنا من القدر الذي فوق النار الى النار ذاتها. لقد مللنا الحياة هنا... وعملنا كخدم مسخرين لن يكون أفضل حالاً».

وأنبتها هيلين قائلة:

«فلافيا! ماذا جرى لك؟»

«لم أكن أجرؤ فيما قبل على أن أعبر عن رأيي... انا أكره هذا المكان، فلقد حرمت فيه من المزايا التي تستمتع بها الفتيات الأخريات... هذا ليس عدلاً»

وكررت العبارة الأخيرة وانفجرت باكية، وانطلقت الى داخل البيت.

واعتذرت هيلين قائلة:

«أسفة للغاية يا سيد هاملتون».

وحاولت أن تنهض ولكنه وضع يده على كتفها قائلاً:

«لا تنشغلي! دعيها! أنا أقدّر مشاعرها، إنها مسكينة، هل تأذنين في أن أذهب لأتكلّم معها؟ أين غرفتها؟»

«أخشى أن يسير الأمر من سيء الى أسوأ».

«أرجوك... دعيني أحاول».

ورغم تشككها قالت:

«غرفة البنات تلي المكتبة... ولكن...»

وابتسم قائلا:

«اتركي لي الموضوع!»

وانصرف... ومضت قرابة عشرة دقائق قبل أن يعود وفي عينيه بادرة ضحك، وقال:

«كل شيء على ما يرام، وهي تعني بهندامها الآن. لقد حضرت اليوم بطريق البرّ، والتاكسي ينتظر، ما رأيكم في إلقاء نظرة سريعة على الجزيرة تستطلعون صورة الحياة التي تنتظركم إذا قبلتم اقتراحي، وسيكون بامكانكم العودة قبل الغروب».

وقالت هيلن:

«فكرة رائعة! ليت فيوليت كانت معنا! سأترك مذكرة للأولاد أخبرهم بمكاننا فقد يعودون قبلنا، هل تبقين يا شارلوت؟»

«أريد أن أذهب معكم!»

كانت فلافيا في غرفة نومها وكان من الصعب أن يظنّ إنسان ان هذه هي فلافيا التي كانت تنهمر بالبكاء. كانت روحها المعنوية قد ارتفعت بشكل واضح، وسألتها شارلوت:

«ماذا حدث؟ ماذا قال لك؟»

وأجابت فلافيا:

«لقد اعتذر».

«عن أيّ شيء؟»

«عن كل شيء في تلك الليلة... وعن إبعادي عن الحفل بتلك الطريقة».

وتردّدت بعض الشيء ثم قالت:

«وقال إن لي عينين جميلتين، وانني عندما أتعلم أصول الماكياج وانتقاء الملابس سأصبح شيئاً آخر... انه ليس كريهاً كما ظننت».

ولم تعلق شارلوت بشيء.

وأثناء الرحلة الى القرية المواجهة للجزيرة جلس ليام الى جوار سائق التاكسي وجلست شارلوت صامتة بين أمها وأختها اللتين اندمجتا معه في

الحديث، وكانت تلحظه وهو يلتفت ليجيب عن أسئلتها وكانت تسأل نفسها «هل هو مخلص وأمين حقاً؟» وخطر لها أنها لا تعرفه تمام المعرفة.

وركبوا الزورق عن رصيف الميناء حيث تجمّع نفر من الفضوليين من أهل القرية، وعندما وصلوا إلى الجزيرة أخذت شارلوت تتجول بعيداً وحدها. وأمضى الآخرون شطراً من الوقت داخل المنزل قبل أن تعود اليهم، وساورها خاطر بأنه سيكون عليها أن تتعود على أن يشاركها في الجزيرة آخرون، ولم تكن قادرة بعد على التحكم في مشاعرها الغامضة إزاء ذلك.

وعاد بهم ليام في قاربه، وقال وهو يعاون السيدة مارتن على السير قرب الشاطىء:

«سأعود يوم الأحد، وأمامكم أربعة أيام لتتوصلوا الى قرار».

وعبّر الأولاد الثلاثة عن حماسهم للفكرة، أما فيوليت فقد عبّرت عن هلعها.

ولم تعر هيلين اهتماماً للمخاطر التي تنبأت فيوليت بأنها ستقع لهم في الجزيرة ولكنها تضايقت لرفضها الذهاب معهم.

وقالت فلافيا:

«سوف تغيّر رأيها بعد أن تستقرّ هناك أسبوعاً أو أسبوعين».

وعرفت شارلوت السبب الذي جعل فلافيا تنتقل من معارض الى مؤيد من خلال حديثهما معا في الفراش في تلك الليلة حين قالت:

«وعد ليام بأن يعلمني كل الأشياء التي لم أجد الفرصة لتعلمها».

«وما هي؟»

«المسائل الاجتماعية مثل السلوك إذا دعيت للعشاء في الخارج... وما شابه ذلك وسوف يساعدني في الحصول على عمل».

لم يكن لدى ليام شك في الاجابة التي تنتظره عندما جاء في يوم الأحد... كان قد حضر بحراً ووجدهم تجمعوا في الشرفة ينتظرونه، وعندما أخبرته هيلن أنهم يقبلون اقتراحه قال:

«حسناً، والآن لنناقش التفاصيل!»

وأخرج لفافة من الورق ونشرها على المنضدة قائلاً:

«هذا رسم يوضح أماكن الاقامة لكل منّا».

والتفّ أفراد الأسرة حوله ليروا الأسم، وقال:

«أقترح أن تشغل السيدة مارتن والبنتان وكيث الصغير الغرف الأربع في الطابق العلوي، أما روب، وبيتر فيشغلان الغرفة التي كانت مخصصة لغسل الأطباق وسوف أنام على أريكة الغرفة المجاورة للردهة وأستخدمها كمكتب أيضاً وتستخدم غرف النوم الممتازة في الطابق الأول للضيوف، هل يناسبكم هذا الاقتراح؟»

وعلّقت هيلن:

«بالتأكيد!»

«واذاً، فأول شيء أعمله غداً هو نقلكم الى المدينة لتشتري الطلاء، وبعض الأدوات، وحالما تجهز غرف النوم يمكنكم الانتقال وسأرتب سيارة لنقل الأثاث الى القرية، ثم تنقلها بالقوارب الى الجزيرة، وبعد ذلك نعرض هذا البيت للبيع، وهل ستحضر فيوليت معكم أيضاً؟»

وعلّقت هيلن في أسف:

«لا! ولكن ربما غيّرت رأيها فيما بعد».

وسألته هيلن:

«من كان مالك الجزيرة قبلك، يا سيد هاملتون؟»

«لم أشترها، فهناك صلة قرابة تربطني بالمالك الأول وقد ورثتها عنه».

لم يكن راغباً في الكشف عن طبيعة الصلة بينه وبين المالك الأول لأي شخص فيما عدا شارلوت مما أدخل السرور الى قلبها.

وتناول معهم وجبة الغداء، وبعدها خرج مع هيلن في الزورق ليواصلا حديثهما الخاص، وقد دار جزء منه حول تعليم الأولاد، فاتفقا على أنها اذا ما قررت بعد تجربة الشهور الستة الاستمرار في المعاونة في إدارة الفندق فسوف يرسل الأولاد الى مدرسة داخلية في بارابادوس».

وقالت لأبنائها:

«قرر السيد هاملتون أن يدفع لكل منكم أجراً متواضعاً ودفع لكم أجر الشهر

الأول مقدماً فقد تحتاجون الى شراء شيء غداً».

واعترضت شارلوت قائلة:

«ولكننا لا نستطيع أن نأخذ نقوداً منه... فليس لديه منها الكثير».

وعلّقت هيلن:

«انه مصمّم».

لم يكن أحدهم فيما قبل قد إعتاد أن يأخذ نقوداً لينفقها كما يشاء، وحصلت فلافيا على المبلغ الأكبر، وشارلوت على أقل قليلاً، والأولاد بما فيهم الصغير كيث على مبالغ تتناسب مع أعمارهم.

وأنفقت فلافيا كل نقودها في اليوم التالي، فاشترت فستاناً وزوجاً من الأحذية الأنيقة وبعض الأقراط ومجلتين أمريكيتين للأزياء، وعاد الصبيان أيضاً برزم متنوعة واحتفظ كل منهم ببعض النقود، وعادت شارلوت برزمة كانت ترفض فتحها، وظهر فيما بعد أنها بلوزة مطرزة، وعلّقت أمها:

«ولكنها فضفاضة، وكبيرة جداً عليك يا حبيبتي! لماذا لم تقيسيها في المحل؟»

وأجابت شارلوت:

«انها هدية الوداع لفيوليت، أتظنين أنها ستعجبها؟»

«بالتأكيد. انها تلائم ذوقها».

وسألها ليام:

«هل هذا كل ما اشتريته؟»

«نعم فقد فكّرت في أن أدخر الباقي».

ونظر الى أمها، وقال:

«كان عليك أن تسمّي هذه الفتاة حكيمة».

وأمضى أفراد الأسرة بقية الأسبوع في الجزيرة يطلون جدران غرفهم.

وفي اليوم المحدد للانتقال الى الجزيرة تناول أفراد الأسرة إفطارهم قبل الفجر وأحسّوا بالحزن وهم يأكلون وجبتهم الأخيرة في البيت الذي كان مسكناً لهم لسنتين عدة برغم أنهم كانوا على عتبة حياة جديدة.

وحضرت الشاحنة بعد الشروق مباشرة لتنقل الدفعة الأولى من الأثاث، وقام

روب وبيتر بمساعدة ليام والسائق في عملية الشحن، وعند العصر كان البيت قد أصبح خالياً تماماً كما كان عندما حضرت هيلن وابنتاها وزوجها ليسكنوه منذ زمن بعيد. وعندما حانت لحظة الرحيل، أخذت فيوليت تبكي وتشهق لأنها لن تقع عيناها عليهم مرة أخرى.

ولم ينس ليام ، برغم ما عاناه طيلة اليوم من جهد في نقل الأثاث والأمتعة بطريق البحر من القرية الى الجزيرة، أن يعد لهم وجبة العشاء، وطلب إليهم بعد العشاء مباشرة أن يخلدوا الى الفراش.

وقالت هيلن:

«ولكن ينبغي أن نغسل الأطباق أولاً».

وعلّق ليام قائلاً:

«سوف أعنى بها... ولا بد أن ترتاحوا، فهناك عمل كبير ينتظرنا غداً. طابت ليلتكم!»

كانت شارلوت بعد العشاء بحوال عشرين دقيقة تقف في النافذة المطلة على الجزيرة وقد سطع عليها ضوء القمر عندما تسلل كيث إلى حجرتها يقول:

«أريد أن أنام معك... لا أريد أن أنام وحدي».

وعانقته وقالت:

«سوف تعتاد ذلك يا كيث ...سريعاً».

«أخشى أن يكون البيت مسكوناً كما قالت فيوليت».

«لقد نام ليام هنا لأسابيع عديدة، ونحن في أمان معه».

واكتفى كيث بأن التصق بها.

«ستنام معي... ولكن الليلة فقط».

وفي أحد الأيام في فترة ما بعد الظهيرة، وكان قد مضى عليهم أسبوع في الجزيرة، ذهب ليام الى الشاطىء ولكنه لم يعد كما وعد في الرابعة مساء. وعندما رجع قالت هيلن:

«بدأنا نتعشى بدونك... أرجو ألا تتضايق».

«على الاطلاق... ولقد أحضرت معي شخصاً... هل لديكم طعام نقدمه اليه؟»

«عندنا فائض كبير... من حضر معك؟»

وأشار ليام الى شخص خلفه:

« فيوليت!»

وقفز الجميع من أماكنهم ليرحبوا بها. وامتلأ المكان بالضجيج وسكتت هيلن أولادها، وسألت:

«هل حضرت لتقيمي معنا يا فيوليت؟»

وأومأت فيوليت وقالت:

«قال السيد ليام ان سعادتكم لا تكتمل بدوني... وأنا كذلك غير سعيدة بدونكم، فانتم بمثابة أسرتي، ولن يسمح السيد ليام بأن يقع سوء لأي منا».

لم يمض شهران حتى تغيّرت الجزيرة تماماً، وبرز المنزل للرؤية من جهة البحر، وكانت شارلوت كلما سنحت الفرصة تبحر في الفتحة التي تمّ توسيعها بواسطة الديناميت، لتحدّق من بعد في واجهة القصر الجميلة، وأعمدته التي طليت حديثاً، والحواجز التي تسطع بطلائها الأبيض في ضوء الشمس.

وكانت النوافذ تتلألأ ليلاً بالأضواء التي تستمدّ الطاقة من المولد الجديد. وكان على كيث أن يدور في البيت ليغلق نوافذ السلك الضيق قبيل الغروب لمنع الحشرات الطائرة وغيرها من الدخول. وكان هناك صندوق ثلج وحلّة كهربية وخلاّط وكلها تدور بالطاقة من المولد، أعجبت بها هيلن وفيوليت كما أعجب الولدان الأكبر سناً بالرافعة الكهربائية.

وبرغم أن ليام كان كثير العودة الى البرّ فان أحداً من الآخرين لم يزر المدينة حتى حان العيد العشرون لميلاد فلافيا.

وانتهزت شارلوت الفرصة فاشترت بذلة بحر صفراء واشترت لفلافيا حامل أقلام شفاه دوّار ومذهب، هدية عيد ميلادها، بينما أهداها ليام مجففاً للشعر وتشارك الأولاد في شراء علبة لزينة الأظافر مانيكير. وبعد عشاء عيد الميلاد فتح ليام صندوقاً كبيراً فيه آلة تسجيل وعدد من الأشرطة وقال:

«وهذه الآلة المسجلة والأشرطة لنا جميعاً».

كانت شارلوت لفترة تحاول أن تخفي شعوراً انتابها بشيء، من الكآبة

والقلق يرجع الى شعورها بالغيرة لا من فلافيا فقط بل من الجميع وحتى من فيوليت ذاتها.

كانت دائماً تعتبر الغيرة انفعالاً خسيساً وأحسّت بالذعر عندما اكتشفت أن تلك بالضبط كانت الحالة التي تعاني منها، لم تكن تغار من توثق الرابطة بين ليام وأمها وأختها والأولاد وانما كان يضايقها أن تجد وهي التي عرفته قبلهم جميعاً أن علاقة ليام بها كانت آخذة في التضاؤل فقد بدت الآن وكأنها آخر من يهتم به من الأسرة.

وهبطت السيدة مارتن الدرج وجلست الى جانب شارلوت وقالت:

«فلافيا تتعلم الرقص بسرعة، ولكنه ليس الرقص الذي كنا نعرفه، ومع ذلك فرقصة الفالس والرقصات السريعة لها ميزاتها».

وعندما توقفت الموسيقى وقف ليام على حافة الدرج يقول:

«هل ترقصين يا هيلين؟»

«كنت... منذ سنوات».

«تعالي لتؤدي عرضاً أمام البنات».

«نسيت الخطوات».

«غير معقول... أنا واثق أنك لم تنسي».

ورضخت هيلن لاقناعه، وأدهشت أطفالها وهي تتبع خطواته كأنها لم تترك الرقص لأكثر من أسابيع برغم أنها لم ترقص منذ أكثر من عشرين عاماً.

وضحكت وهي تلهث قائلة:

«هلا تعطي شارلوت درساً؟»

وتردّد بعض الشيء ثم قال لها:

«أتحبين أن تجربي يا شارلوت؟»

وأجابت على الفور:

«لا... شكراً!»

كانت شارلوت في أعماقها تتمنى أن تحسّ بملمس ذراعه حولها، وألحّت عليها أمها فهبطت الدرج ببطء وتردد لتشارك في الرقص، وكرر ليام ما سبق أن قاله

لفلافيا:

«انسي كل شيء عن قدميك واسترخي واستمعي الى الايقاع».

وأمسك يدها وانتظرت حتى بدأت المعزوفة الثانية وبدأ يجذبها إليه ثم يدفعها الى الخلف.

وعندما انتهت الرقصة قالت هيلين:

«أحسنت يا حبيبتي... انكما ترقصان كأن الرقص غريزياً فيكما».

وقالت فلافيا:

«انه دوري الآن... هلا تعلمني رقصات أمريكا اللاتينية فيما بعد يا ليام؟»

«أستطيع أن أعطيك فكرة عامة، ولكننا نحتاج الى موسيقى مناسبة. أما الآن فأنا بحاجة الى شراب».

وكانت شارلوت قد ذهبت الى الفراش قبل أن يعود، وبدا لها في الأيام التالية أنها في كل مرّة تلمحه كان يبدو متشاغلاً مع الآخرين. كان لديه الوقت لهم جميعاً ماعدا شارلوت... يتحدث إليها على المائدة وكذلك في وجود الآخرين ولا يدخل غرفة ويجدها وحدها هناك إلا وجد العذر للانسحاب.

وفي أحد أيام الآحاد حضر مصوّر ليلتقط صوراً تنشر في كتيب عن الفندق. كان شابا يدعي ريكاردو تورتيل من جزر الهند الغربية. وكان يعمل بقية الأسبوع في البنك الذي يحتفظ ليام فيه بأمواله. واكتشف ليام أن ريكاردو كان مصوراً هاوياً موهوباً يأمل أن يتحوّل الى محترف ذات يوم.

كان ليام قد سبق أن شرح لريكاردو أن هناك إصلاحات أخرى سوف تتم في المبنى قبل أن يستخدم كفندق، وأنه يريد صوراً فوتوغرافية تنقل الى كبار الزوار للانطباع الذي سيكون عليه المكان عند الافتتاح بدون مبالغة.

وأمضى ريكاردو اليوم كله في الجزيرة يلتقط صوراً أكثر مما يلزم للكتيب ليبيعها لمكتبات الأفلام ووكالات الاعلان.

كان طعام الغداء في ذلك اليوم يتكوّن من سرطان البحر الذي قدم على طبق كبير بطريقة فاخرة، وحملته فيوليت وهي تلبس فستانها الأحمر اللامع. وعندما حان وقت الظهيرة دخل ريكاردو وأغلق حصير النوافذ وظلّل البيت بظلمة

خضراء غريبة.

وذهبت شارلوت الى غرفتها ترتدي بذلة الاستحمام الصفراء، وعندما نزلت الى الطابق الأرضي وجدت ريكاردو وحده في الردهة، وصمّم على أن يلتقط لها بعض الصور وهي تجلس فوق قاعدة النوافذ المطلة على الدرج... كانت تعتبر أنه يضيّع الفيلم لأنها لا تستحق تلك الصوَر ومع ذلك أطاعت تعليماته، وشردت تفكر في ليام وتمنت أن تكون معها صورة له تنظر اليها في وحدتها.

واكتشفت أنها تحب ليام وعرفت أن صداقته وحدها لم تعد كافية لتعيد إليها السعادة، فهي تريد الآن شيئاً أكثر من الصداقة... تريد أن يصبح لها عنده مكانة وأهمية كما أصبح له لديها.

وعاد ريكاردو الى الجزيرة في عطلة الأسبوع التالية ليريهم بروفات الصور التي أخذها وحازت الصور إعجاب ليام، قبل أن يبدأ بعرض عدد آخر من الصور التي أخذها لشارلوت والتي كانت قد نسيت كل شيء عنها.

وقال روب يلخص مشاعر الآخرين:

«انظروا... انها شارلوت! كنت أظن أن الكاميرا لا تكذب، ولكنها تفعل ذلك تماماً انها ليست كذلك في الواقع على الاطلاق».

وأحست شارلوت بالدهشة نفسها إذ كانت تبدو في الصور أكبر سناً وأكثر رشاقة وجمالاً، ودفعتها الغريزة للنظر الى ليام، كان حانقاً وقال موجهاً الكلام الى ريكاردو:

«لماذا التقطت هذه الصورة؟»

والتفت ريكاردو الى السيدة مارتن قائلاً:

«أعتقد أن بوسعي بيعها... لو أذنت طبعاً».

«انها صور لطيفة... لكن من ذا الذي يريد أن يشتريها؟»

وأجاب:

«صور الجميلات تطلب دائماً».

وقاطعه ليام:

«بالتأكيد لا... كان ينبغي أن تستأذن قبل أن تلتقطها يا ريكاردو! تعال الى

المكتب لأسوي الموضوع معك!»

وجمع كل النسخ ووضعها في ملف وترك الغرفة. وعلق روب قائلاً:

«لقد خاب الأمل في أن تصبحي فتاة الغلاف يا شارلوت!»

وظل والأولاد الآخرين يضحكون في ضجيج حتى جعلتهم هيلين يغادرون المكان.

وسألتها فلافيا:

«لماذا لم تقولي ان ريكاردو التقط لك صوراً؟»

وأجابت شارلوت:

«نسيت كل شيء عنها».

وظل الأولاد ليوم أو يومين يعمدون الى إغاظة شارلوت التي ظلت تفكر في السبب الذي من أجله أبدى ليام ذلك الامتعاض الواضح... وكانت تودّ لو أنها طلبت أن تحتفظ بصورة منها، ولكنها خشيت أن يتهمها بالعجب والخيلاء.

وفي اليوم الموعود الذي كان السجل القرمزي فيه موضوعاً على مكتب الاستقبال ومعداً لتسجيل الضيوف الأربعة الأوائل قالت هيلين وهم يتناولون الفطور:

«ما أسرع ما يمضي الوقت عندما يكون الانسان مشغولاً بالعمل... كأننا أمضينا أسبوعاً واحداً أو أسبوعين فقط منذ جئنا هنا».

حدث ذلك في أول يوم يصل فيه ضيوف الى الفندق.

وبعد ذلك بحوال أسبوعين كان بوسعها أن تقول:

«لو أن ضيوفنا يستمتعون بوقتهم كما فعلت أسرتا هويتينكر و هايارد فلن تكون أمامنا مشكلات...»

وكانت شارلوت سعيدة كالآخرين لأن الأسرتين الامريكيتين استمتعتا باجازتهما ووعدتا بمدح فندق جزيرة مانغو لكل الأصدقاء. ومع ذلك فالنزلاء الذين وصلوا الى الفندق بعدهم مباشرة لم يكونوا أناساً رقيقين مثلهم بل ستة أشخاص يحتسون الشراب ويلعبون الورق حتى الساعات الأولى من الصباح، ثم ينامون فلا يستيقظون قبل الظهيرة النسوة يتركن أثار أقلام الشفاه وزينة

العيون على ملاءات الفراش الجديدة. وكل يوم كان هناك على الأقل لفافة سكاكر خالية أو صندوق شوكولاتة أو أوراق أخرى ملقاة على الشاطىء ليقوم إنسان آخر برفعها...

وقالت لفيوليت وهي تبدّل الأزهار في آخر يوم لإقامة أولئك النزلاء:

«أحمد الله أنهم سيرحلون غداً... وأدعوه ألا نرى مثلهم ثانية».

وهزّت فيوليت كتفيها وعلقت متفلسفة:

«في رأيي أنهم أفضل من ألاّ يكون لدينا نزلاء بالمرّة».

ونظرت فيوليت الى الساحة السفلى فرأت ليام أمام المبنى، وقالت:

«من المؤسف أن السيد ليام ليس أكبر مما هو بعشر سنوات كما أنه ليس أصغر بالقدر نفسه».

«لماذا تقولين ذلك؟»

«لو أنه كان أكبر لكان من الممكن أن يتزوج السيدة مارتن، ولو أنه أصغر كان زوجاً مناسباً للآنسة فلافيا».

قالت ذلك بدون أن ترى الذعر الذي أصاب شارلوت. ومضت لحظة صمت قالت شارلوت بعدها في حرص:

«أعتقد أن الزواج لا يعتمد فقط على السن المناسبة... اذ ينبغي أن يكون هناك حب متبادل».

وضحكت فيوليت بينها وبين نفسها، وقالت:

«لن يجد ليام صعوبة في أن يجعل أي سيدة تقع في حبه».

وفكّرت شارلوت في كآبة: هل يكّن هو لها حقاً شيئاً من الحب؟»

وفي أحد الأيام قررت شارلوت في فترة ما بعد الظهيرة أن تستكشف لأول مرة ساحل الجزيرة الرئيسي من الجهة الشمالية... وأرست قاربها وأخذت تسير بخطى صغيرة على حافة خليج صغير خال، عندما لحق بها شاب طويل القامة ذو شعر أشقر يقاربها في السن، وكان قد وصل على قارب بلون أصفر فاتح من الاتجاه المقابل وأوقفه بالقرب منها وقال:

«هالو! هل الشاطىء هنا ملكية خاصة؟ أرجو ألا أكون قد اعتديت على أرض

الغير.

وهزّت شارلوت رأسها وقالت:

«ليست هناك شواطىء خاصة على الجزيرة، فالشواطىء ملك للجميع».

«أوه! أنت انكليزية أيضاً، كنت أظنك أمريكية. أنا إيان فريزر كيف حالك؟»

وابتسم ومدّ يده إليها.

«وأنا شارلوت مارتن».

«هل تقيمين معنا في فندق المياه الخضراء؟»

«كلا... فأنا أقيم في فندق جزيرة مانغو وأعيش هناك».

«ماذا؟ طوال السنة؟ أنك محظوظة».

«وما موطنك أنت؟»

« اسكتلندا... هل تقيمين مع أهلك هنا منذ مدة طويلة... أم أنكم مهاجرون جدد؟»

«أقمنا هنا منذ كان عمري أربع سنوات، وأختي الأصغر ولدوا هناك».

وسألها ايان:

«كم عمرك الآن؟»

«سبعة عشر عاماً... وما عمرك أنت؟»

«ثمانية عشر عاماً... أكملت تعليمي الثانوي في يوليو/تموز الماضي وقررت أن أجول لمدة عام في الخارج قبل أن ألتحق بالجامعة. ولكن أجريت عملية خطيرة لأبي في أغسطس/آب وصمم الأطباء على أن يحضر الى هنا للراحة ستة أسابيع. أمي ماتت منذ ثلاث سنوات ولم يشأ أبي أن يحضر بمفرده، لذلك جئت معه. وأعتقد أنني محظوظ إذ أتيحت لي هذه الفرصة، والمشكلة أن أبي يأوي الى الفراش مبكراً فاشعر بالفراغ في الأمسيات ولا أجد شباباً في الفندق فكلهم لا يقلون عن الأربعين ويصل معظمهم الى الخمسين أو الستين. ما متوسط أعمار النزلاء في الفندق الذي تسكنين فيه؟»

«معظمهم في منتصف العمر كذلك».

وعبس قائلاً:

«ومع ذلك لا ينبغي أن نحزن فالمكان يستهلك طاقة الانسان أثناء النهار... جربت كل شيء كالتزحلق على الماء والسباحة والغطس... وغيرها».

كانت شارلوت قد أحست نحوه بالتقدير منذ رأته. والآن وبعد أن حادثته خمس دقائق أحسّت بالارتياح اليه كأخ من اخوتها... لم يكن حسن المظهر لكن وجهه كان صبوحاً وشعره أشعث بعض الشيء ولم يكن متكلفاً... وليس مثل ذلك الشاب الذي دعا فلافيا الى الحفلة.

وأمضيا حوال نصف ساعة يتحادثان، قال إيان:

«ليلة السبت من كل أسبوع يجري في فندق المياه الخضراء حفل راقص وفي كل ليلة تقام رقصات على الموسيقى المسجلة، لكن السبت يعتبر يوماً خاصاً تحضر فيه فرقة حية... هل تحبين أن تحضري هذا الحفل؟»

وقالت في تشكك:

«لا أعرف!»

وعلت وجهه حمرة خجل باهتة وقال:

«كان عليّ أن أدرك أن فتاة مثلك لا بد أن تكون مرتبطة لأسابيع مقبلة».

وكررت وراءه:

«فتاة مثلي؟»

وتردد بعض الشيء ثم قال على عجل:

«انك أجمل فتاة رأيتها».

كان يتكلم باخلاص وطريقة جعلت شارلوت تعجز عن الكلام لحظة وقالت بعد صمت:

«أحب أن أحضر الحفل يا إيان ولكني سأستأذن أمي».

ووافق على الفور قائلاً:

«أوه بالطبع... هل يبعد محل إقامتك كثيراً؟ هل يمكن أن آتي معك لأقدم نفسي؟»

«انه لا يأخذ وقتاً طويلاً في الزورق؟ ولكن ما مصير قاربك؟»

«يمكننا أن نربطه فسأحتاج اليه في العودة».

وأرسيا الزورق على الجزيرة عند الشاطىء الصغير وكان أول شخص قابلاه هو ليام... كان يقوم بحفر بؤرة لا تبعد كثيراً عن المر اكتشفها قبل ذلك بأيام قليلة.

وقال ليام وهو ينظر بعين الاستفسار الى رفيقها:

«أهلاً... لقد عدت مبكرة».

ووضحت له قائلة:

«هذا إيان فريزر... إنه هو مع والده يقيمان في فندق المياه الخضراء».

وقال إيان:

«كيف حالك يا سيدي؟ جئت أستأذن في السماح لشارلوت بأن تحضر الحفل الراقص يوم السبت في الفندق الذي أقيم فيه. وهناك زورق يمكنني أن أستعيره لأصطحبها في الذهاب ولأعود بها في الوقت الذي تحددونه».

وأخذ ليام يتفحصه، وقال:

«لا أرى مانعاً... ولكن ينبغي أن تستأذن أمها».

وأومأ ايماءة ودية ثم واصل عمله.

وقال إيان وهما يواصلان السير:

«إذا كان أبوك قد وافق... فلا أعتقد أن أمك تعترض».

وقاطعته قائلة:

«ليام ليس أبي؟ ألا ترى أن سنه لا يسمح بأن يكون كذلك؟»

«أسف... ولكن من يكون إذاً؟»

وشرحت قصة وفاة أبيها... وكيف حضرت أسرة مارتن إلى الجزيرة.

كانت هيلين تراجع محتوى حجرات التخزين وتكتب قائمة بالأصناف التي يحضرها ليام في رحلته المقبلة الى المدينة. ورحبت بإيان وأبدت موافقتها على ذهاب شارلوت الى الحفل شرط أن يعيدها قبيل منتصف الليل.

وقالت وهم يتناولون العشاء في تلك الليلة:

«يذكرني إيان بشخص لا أستطيع أن أتذكر من يكون؟»

وعلق ليام:

«هل لديك ما تلبسينه في هذه المناسبة يا شارلوت؟ انا ذاهب الى المدينة غداً وتستطيعين أن تأتي معي لتشتري ما يلزمك».

وقالت فلافيا:

«وأذهب معكما لأساعدها على الاختيار».

وهزّ ليام رأسه وقال:

«لا... لا يمكن أن تتركا العمل أنتما الاثنتين في فترة الصباح، فعليك أن تقومي بعملك بالاضافة الى عمل شارلوت يا فلافيا».

كانت فلافيا فيما مضى تثور على مثل ذلك التحكم ولكنها الآن تقبلت الأمر ببساطة واكتفت بأن تقول:

«لو كنت مكانك يا شارلوت لذهبت الى المتجر الصغير في شارع الكنيسة. فصاحبته امرأة لطيفة وتقدم خالص النصيحة».

وقتمت شارلوت:

«سوف أفعل».

لم تكن فكرة شراء فستان وراء ما أحسّت به من إثارة ولكنها المتعة للتواجد وحدها مع ليام لساعات عدة.

وللأسف لم يكن لها وحدها أثناء الرحلة في الصباح التالي فقد دعا بعض القرويين للركوب معها وكان يتحدث إليهم لا إليها. وعندما وصلا الى العاصمة لم يصحبها في جولتها بل اتفقا على أن يتقابلا أمام المحكمة عند منتصف النهار تماماً، ومضى الى عمله تاركاً إياها تراقبه في يأس حتى اختفى.

ووصلت الى المكان الذي تواعدا عليه قبل الموعد بنصف ساعة، وانتظرته على مقعد ظليل، ولم تكن مبتهجة كثيراً برغم نجاح مهمتها في شراء ما تريده وارتفعت روحها المعنوية عندما رأته يعبر الميدان وساعة المحكمة تشير الى الثانية عشرة إلا عشرين دقيقة فلربما أقترح أن يتناولا وجبة الغداء في المدينة أو على الأقل مشروباً بارداً ينعشهما قبل رحلة العودة.

وأخذ قلبها ينبض عندما رأته يقترب من المقعد مبتسماً وقد رأى رزمة الطرود معها. ولكن توقعاتها لم تدم طويلاً وكان أول ما قاله:

«لقد جئت مبكرة... لو تحركنا الآن فسنصل مع الغداء، اتركي لي حمل بعض الطرود عنك، ماذا بها»

وقالت وقد أحست بشيء من الاحباط:

«فستان وبعض الصنادل... وأشياء أخرى».

«ماذا حدث؟ ألم تبتاعي كل ما كنت تريدينه؟»

ولم تنكر فنوطها، وقالت:

«ليس ذلك السبب... ولكنني متعبة وعطشانة».

واشترى واحدة من الآيس كريم وهما في الطريق الى مكان انتظار السيارة، وعندما قدمها اليها قالت بجفاء:

«لا... أشكرك!»

ولم يكن قد سألها قبل أن يشتريها، اذا كانت تريدها أم لا... لكنها لم تكن طفلة... وكانت تحس بالغضب لمعاملتها بتلك الطريقة.

وانطلقت بهما السيارة في طريق العودة في صمت أحسّت معه شارلوت بالضجر، وعندما بلغا القرية كان حلقها يحترق بالدموع الحبيسة، وعندما وصلا الى الجزيرة حاولت أن تشكره على اصطحابها إياها فأجاب بطريقة عارضة:

«لا شكر على واجب».

كان من الصعب على شارلوت أن تنام في تلك الليلة وظلت تتقلب في فراشها حتى منتصف الليل، وفي الثانية صباحاً تسلّلت في هدوء من غرفتها وهبطت الدرج. واعترتها الدهشة اذ وجدت بعض الضوء يتسرّب من أسفل باب المكتب، لم يكن من اليسير أن يحس ليام بوقع قدميها وهي تهبط الدرج في سكون الى الردهة. وفتح الباب بمحض الصدفة فوقعت عيناه عليها وهي في منتصف الطريق بين قاعدة السلم وباب غرفته.

وأصيبت بما يشبه الشلل عندما وقع عليها الضوء فجأة فنظرت بعينين طارفتين تجاهه، وهو يقول:

«الى أين؟»

«لا أستطيع أن أنام... وسأخرج لأستحم في البحر».

واتجه نحوها يقول:

«لا ينبغي أن تصابي بالأرق في مثل هذه السن».

«أنا ... الجو الليلة حار للغاية...»

لم يكن كما تخيّلت يقرأ في سريره ولم يكن قد سكن الى الفراش بعد. كان لا يزال يلبس البنطلون الذي لبسه على مائدة العشاء. وكان عاريا حتى خصره وسألها:

«هل اعتدت أن تتجولي في مثل هذه الساعة؟»

وهزّت رأسها بالنفي، وبدلاً من أن يطلب إليها العودة الى غرفتها قال:

«لا تستطيعين أن تسبحي وحدك. سأذهب معك، انتظري حتى أغير ملابسي وأحضر منشفتي».

ودخل غرفته وأوصد الباب بدون أن يغلقه تماماً ليترك بصيصاً من النور فوجدت نفسها في نوع من الظل المخيف ذكّرها فجأة بتاريخ المبنى وبالفترة التي كان مهجوراً فيها. انطفأ مصباح المكتب ولم تستطع للحظات أن تبصر شيئاً... وتصادف أن الضوء الذي كان يدخل عن طريق نافذة على الدرج احتجب أيضاً وانطفأ مصباح المكتب ولم تستطع للحظات أن تبصر شيئاً... وتصادف أن الضوء الذي كان يدخل عن طريق نافذة على الدرج احتجب أيضاً بسحابة غطت وجه القمر.

ولما لم تسمع صوتاً ينبيء عن وجود أية حركة همست:

«ليام!»

ولم تسمع إجابة.

وأحست بشيء من الذعر، وكررت:

«ليام!»

وجاءها صوته وقد اقترب منها تماماً:

«هنا!»

«أوه!»

ومدّت ذراعيها بطريقة غير مقصودة تجاهه وكادت أن تصطدم به فقد كان

قريباً منها أكثر مما تظن لولا أنه أمسك بذراعيها ليوقفها، وسألها:

«ماذا حدث؟»

«لا شيء... فقط أحسست لدقيقة بشيء من الذعر».

كانت يداها تستندان الى صدره الدافيء الصلب، وأحسّت بأنه من السخافة أن تتوهم أنها محاطة بأشياء غريبة. وعلق قائلاً:

«أرجو ألا يعاودك الشعور بالخوف من الأشباح».

وعندئذ عاد ضوء القمر الى الرقعة من جديد، وأطلقها ليام بعد أن كان منظرهما يبدو وكأنهما على وشك العناق.

وأجابت في صوت خفيض وقد تمنت أن يسود الظلام لفترة أطول:

«لا...»

وفتح الباب الرئيسي بعناية وسار أمامها عبر الحديقة الى الشاطيء. كانت السحابة التي حجبت القمر تتجه بعيداً والسماء تبدو صافية.

وعندما اقترب ليام في الشاطيء وارتدى رداء كانت تتوقع أن يطلب إليها أن تخرج من الماء ولكنه لم يفعل ورأته وهي تخرج من غطسة في قاع البحيرة يتمدد على الرمال يدخن سيكاراً... وجلست الى جواره وأتزرت بمنشفتها، لكنه لم يبد حراكاً، ثم قال:

«هل تعرفين أن هذه المياه كانت في وقت ما ملينة بالسلاحف البحرية».

وأحست بالبهجة لأن ليام يتحدث إليها بطريقة ودية كما كان يفعل من قبل.

وسألته:

«هل كنت تحب أن تعيش في هذا المكان في ذلك الزمن؟ منذ خمسمائة عام».

«ليس بصفة خاصة... وأنت؟»

«لم يكن يضيرني أن أكون فتاة في شعب الأراواك... فقد كان شعباً سعيداً محباً للسلام، ولو قدّر لي أن أعيش عند ذاك لما كنت أعتبر فتاة لابد أنني كنت سأكون متزوجة ولي طفلان أو ثلاثة أطفال».

وجففت نقطة ماء عن وجنتيها وواصلت تقول:

«انا أتعجب لماذا كان الناس في تلك الأيام يعتبرون أنهم وصلوا الى سن النضج في سن أصغر بكثير مما يحدث الآن؟»

«لقد أجبت على هذا السؤال من قبل... فحينئذ كانت النساء يوجدن ليلدن الأطفال وليقمن بالأعمال اليدوية الحقيرة».

«أما زال ذلك واجب معظم النساء؟»

ورأته يبتسم قبل أن يجيب:

«نعم... غير أنه لهن الآن اختيار أكبر... فهن لا يجبرن على أن يكن عبيداً رغما عنهن. أيضاً فاننا نعيش لفترات أطول وليس من الضروري أن تبدأ الفتيات في إنجاب الأطفال فور نضجهن ولو كان هذا هو القرن الخامس عشر وكنت أنا من نسل الأراواك لكنت الآن رجلاً هرماً ليس أمامي فرصة كبيرة للحياة لفترة أطول، بل لكنت سعيد الحظ لأنني عشت لفترة أطول مما يحدث عادة».

ونهض قائلاً:

«هل تحسّين بحاجة إلى النوم الآن؟»

«ليس كثيراً، إنها ليلة جميلة».

وخلع رداءه وقال:

«اخلعي ملابسك القطنية المبتلة والبسي هذا بينما أصنع بعض الكاكاو».

كان الرداء المخطط يصل الى رسغ قدمي شارلوت ولفته حولها وثنت أكمامه وربطت حزامه على خصرها.

وبعد أن عصرت ثيابها القطنية وضعتها في منشفتها وتبعت ليام الى داخل المنزل.

وجدته في المطبخ، كان قد خلع ثيابه المبتلة ولبس بنطلوناً وقميصاً. وأخذ منشفة جافة من سلة الملابس وقال:

«لا يمكنك أن تذهبي الى الفراش وشعرك مبتل».

وشرع في دعك رأسها بقوة، ثم قال وهو يلقي بالمنشفة جانباً:

«هكذا أحسن».

وأكمل ليام عمل الكاكاو وأحضر كأسين كبيرين الى المائدة وقال:

«هل تريدين أن تأكلي شيئاً؟»

وهزت رأسها بالنفي وقالت:

«لماذا كنت يقظا في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ ألم تستطع أن تنام أنت أيضاً؟»

وتناول كأسه وقال:

«لا، ولعل هذه إحدى ميزات الحياة في هذا العصر، كان الأراواك يشربون عصير المنيهوت ليستغرقوا في النوم. أتعرفين كيف أكتشفوا أن نبات المنيهوت يفقد خواصه السامة إذا ما تعرض للغليان؟»

كان لديها الاحساس بأنه أدخل لقطة المنيهوت في الحديث لأنه لم يكن يريد أن يناقش معها السبب وراء قلقه وقالت:

«لا أعرف».

وأضاف:

«ولكنه ليس فاتحاً للشهية».

وسألته:

«ألا تشعر بالندم الآن يا ليام؟»

«أندم على أي شيء؟»

«على تحويل المنزل الى فندق... وعلى أنك ضممتنا جميعاً تحت جناحك».

«ما الذي جعل هذه الفكرة تخطر ببالك؟»

«فكرت إذا كنت تحس بأنك وقعت في مصيدة... فلقد اتخذت القرارات بطريقة متسرعة، ولم يكن لديك الوقت لتتمعن في الأمر... والحياة التي تعيشها الآن تختلف كثيراً عن الحياة التي كنت تعيشها قبل أن تأتي الى هنا».

وتردد قبل أن يجيب:

«ليس لك أن تقلقي عليّ يا شارلوت... إنا لا أندم على الحاضر إنما أندم على الماضي فقط». وسألته في حيرة:

«ماذا تعني؟»

وهز كتفيه قائلاً:

«ضيعت كثيراً من الوقت والمال على أشياء لم أكن أريدها حقيقة. والنقود لا تعني الكثير ولكن الأمر يختلف فيما يخص الوقت. والانسان قادر على تعويض الخسائر المادية أما الوقت فلا يمكن تعويضه».

«انك تتكلم كما لو كنت كبيراً في السن».

«لست كبيراً في السن ولكني كبير على بعض الأعمال التي كان من الممكن أن أعملها منذ عشر سنوات».

«مثل ماذا؟»

وفي هذه المرة عمد الى تغيير الموضوع بطريقة مباشرة فقال:

«الكاكاو سيبرد... وسوف تشرق الشمس قبل أن تنامي بما فيه الكفاية، الأفضل أن تأخذيه معك الى الطابق العلوي».

«لا أستطيع، لأنني لو أضأت النور لأدى ذلك الى إيقاظ الآخرين، وقد ينسكب في الظلام، وفي حال...»

وارتشفت منه رشفة بحذر، وقالت:

«إنه لا يزال ساخناً... وأحس بالجوع».

وذهبت لتبحث في الثلاجة. وعندما عادت ومعها بعض بقايا الأرز وبعض قطع السجق وقطعة كبيرة من الجبن وثلاث قطع من الخبز المغطى بالزبد قال ليام:

«سبحان الله... لن تنامي أبداً اذا أكلت هذا الخليط الذي يؤدي الى عسر الهضم».

وقطعت شريحة من الجبن وفردتها على قطعة من الخبز المغطى بالزبد وقدمتها إليه قائلة:

«ولم لا؟ خذ شيئاً منها».

وهز رأسه قائلاً:

«أكلت بما فيه الكفاية في العشاء، ولكنك لم تكوني جائعة عندئذ».

ونظرت إليه نظرة استغراب، كانت تظن أنه لم يكن يعيرها أي اهتمام أثناء العشاء، فكيف لاحظ نقص شهيتها للطعام؟

وواصل يقول:

«يبدو لي بالفعل أنك لم تكوني تأكلين لفترة، أرجو ألا تكوني تطبقين نظاماً غذائياً قاسياً».

«لو كان ذلك صحيحاً لما أكلت هذا السجق».

«هكذا شأن الفتيات اللواتي يتبعن نظاماً قاسياً للأكل، ثم يفقدن قوة ارادتهن بعد قليل ويكثرن من الطعام».

وجاء دورها لتغير مجرى الحديث، فقالت:

«كنت تقول على الشاطىء ان الناس يحتاجون الى وقت لينضجوا عاطفياً ما مقدار ذلك الوقت؟»

«المسألة تتوقف...»

«على أي شيء؟»

«على أشياء كثيرة... الوراثة... البيئة... الحالة المزاجية...»

«واذاً فبعض الناس ينضج في سن مبكرة نسبياً؟»

«نعم... ولكن ليس في مثل سنك».

«لا أستطيع أن أفهم لماذا لا تسلم بحدوث ذلك في بعض الأحيان؟»

«لأن أهم عامل هو الخبرة، وخبرتك في الحياة محدودة للغاية».

«ولكن خبرتك ليست محدودة، ومع ذلك ضيعت عشر سنوات، فما الذي يدل على ذلك؟»

«لا شيء، على الاطلاق، لأن كل منا حالة خاصة، لقد أعطيت نصيباً كبيراً من الحرية في سن مبكرة، وأنت ظللت حبيسة لفترة طويلة، والآن كفي عن الثرثرة واشربي كأسك، ربما لا تحسين بالتعب ولكنني متعب جداً».

وشربت شارلوت كأس الكاكاو على مضض، وهمست وهي في الردهة:

«أشكرك على الوقت الذي أمضيته معك».

«حسناً... ولكن أقلعي عن عادة التجوال أثناء الليل... ليلة سعيدة».

«ليلة سعيدة».

وعادت الى غرفتها وهي في حالة نفسية أفضل مما كانت عليه عندما تسللت الى الطابق الأرضي.

كان أوليفر أثناء غيابها قد استقر على وسادتها يستمتع بالفراش الوثير، ونقلته في لطف الى الحصيرة على الأرض وما كادت تستقر حتى وثب من جديد الى الفراش وكوّر جسمه بارتياح مستندا الى ظهرها، وظلت يقظة لفترة قصيرة.

وخطر لها وهي تربت على فراء أوليفر أنها ربما بالغت عندما اعتقدت أن ليام كان يعاملها ببرود فلربما كان مشغولاً بمشكلات عمله الجديد.

كان أول شخص رأى شارلوت مساء السبت بعد أن استعدت للخروج شقيقتها فلافيا، تقابلتا على الدرج وسألتها شارلوت:

«هل يعجبك فستاني؟»

وأخذت فلافيا تتفحص الفستان الجديد، كان فستاناً طويلاً أبيض. وكانت فتحة الرقبة والأكمام محلاة بشرائط خضراء، وكان الصندل أخضر اللون كما ربطت شعرها بشريط أخضر وضفرته في هيئة ذيل الفرس، واستعملت زينة خفيفة بقلم الشفاه، ولم تكن قد اشترت شيئاً آخر من مواد التجميل سوى زجاجة عطر فرنسي صغيرة غالية الثمن.

وقالت فلافيا:

«إنك تبدين جميلة للغاية».

ولكن شارلوت أدركت أن تعبير شقيقتها مصطنع وأنها لم تقدر الفستان التقدير الكافي، ومع ذلك كانت هي مقتنعة من دراستها لمجلات الأزياء أن البساطة هي السر وراء الأناقة وربما كان ما يؤخذ على فستانها هو أنه جعلها تبدو أصغر سناً بل أقرب شبها بتلميذات المدارس.

كانت هيلين مارتن في المطبخ تعد المايونيز الطازج ورفعت بصرها فرأت ابنتها الصغرى وعبّرت على الفور عن انفعالها قائلة:

«أوه! إنه ساحر يا شارلوت! استديري... أريد أن أرى ظهر الفستان. إن مظهرك جميل يا حبيبتي... انا معجبة بتصفيف شعرك وبالشريط والزينة بسيطة للغاية.. شكراً لله».

وضحكت ثم واصلت قائلة:

«كنت أخشى ألا تقفي فتشتري فستاناً غير مناسب لسنك، ولكن هذا الفستان

مناسب تماماً، إنه الشيء الذي كنت أختاره لك».

كانت شارلوت بينها وبين نفسها ترى في تعليق أمها شيئاً من المغالاة فلم تستسغه كما لم تستغ إطراء فلافيا الفاتر، وواصلت أمها قائلة:

«اذهبي ليرى ليام مظهرك، إنه في المكتب على ما أعتقد».

وغادرت شارلوت المطبخ واجتازت الردهة، كان باب المكتب مغلقاً وتوقفت لحظة قبل أن تنقر على الباب لتعرف الرأي الوحيد الذي كانت تحرص عليه.

وسمعت صوته يقول:

«ادخلي!»

كان ليام يجلس الى مكتبه ينسخ خطاباً على الآلة الكاتبة وقال بدون أن يرفع بصره ليرى من بالباب:

«سأفرغ بعد لحظة».

وواصل الضرب على الآلة الكاتبة.

وأغلقت شارلوت الباب، وأسندت ظهرها اليه وهي تحاول أن تبدو أكثر هدوءاً، كانت الفترة التي انشغل فيها عنها تقل عن دقيقة أتمّ فيها الرسالة وراجع ماكتبه ورفع الصفحة التي نسخها عن الآلة ولكنها بدت كأنها خمس دقائق، وأخيراً رفع رأسه لينظر اليها.

وأخذ يتفحصها لحظات كما فعلت فلافيا بدون أن يتكلم ثم زحزح كرسيه الى الخلف ونهض... وفجأة أحست بالشراقة في عينيه جعلت حلقها يتوتر من الاثارة.

وقالت بصوت أبح:

«حسناً... ما رأيك فيّ؟»

كانت تعرف مسبقاً رأيه فقد سبق أن نظر إليها بالطريقة نفسها وبعدُ ذلك بثوان كانت بين ذراعيه وراح يعانقها. كانت المنضدة بينه وبينها في هذه المرة ولم يستطع أن يمد ذراعيه ليجذبها إليه كما أنهما لم يكونا وحيدين في المنزل، وقبل أن يدور حول المنضدة كان هناك شخص ينقر على الباب ولكنه لم ينتظر حتى يسمح له بالدخول على الفور، كان ذلك الشخص بيتر الذي قال:

«يريد السيد لانجلي مظروفين من مظاريف البريد الجوي، ولا يوجد منها شيء في الخارج، هل لديك شيء منها يا ليام؟»

«أعتقد ذلك».

ونظر بيتر الى شارلوت وقال:

«ماما تقول أنك في أبهى زينة لتقابلي صديقك ومظهرك ليس سيئاً في أي حال».

واقترب منها وأخذ يتنشق، وقال:

«وضعت عطراً نفاذاً شممته فور أن فتحت الباب».

ولم تعلق شارلوت بشيء... ولكنها كانت تود أن تخنقه... وعندما أعطاه ليام حزمة المظاريف، انصرف. فسألت ليام قائلة:

«هل تعتقد أن العطر الذي وضعته أكثر من اللازم؟»

وأجاب:

«لا يزال بيتر صغيراً لا يدرك مغزى ذلك... ولكن إيان سوف يقدره كل التقدير».

وسقط قلبها إذ اختفت الومضة التي كانت تضيء عينيه قبل أن يقطع بيتر عليهما تلك الخلوة... وبرغم أنهما كانا الآن في جهة واحدة من المنصدة لا تكاد تفصل بينهما باردة واحدة عاد الحاجز غير المحسوس يفصل بينهما من جديد. وسألها:

«هل تحسين بشيء من التوتر؟»

«ولماذا أحس بالتوتر؟»

«إنه حدث كبير... أول موعد في حياة فتاة».

وأضاف بطريقة عارضة:

«وربما أول قبلة».

واضطرب نبضها وهي تقول:

«سبق أن قبلني شخص آخر هل نسيت؟ أنت قبلتني».

وأدخل ليام يديه في جيبيه بقوة وانقبضت عضلات فكه تحت بشرته الداكنة كما أخذ يكز على أسنانه فجأة، وقال:

«نعم فعلت ذلك... ولكنك لا يمكن أن تقيمي وزناً لتلك القبلة».

وقبل أن تقول: كيف؟ ولم لا. واصل يقول:

«انصرفي الآن! لا تعيري أي اهتمام لما قاله بيتر... إن مظهرك جميل جداً، وهذا العطر ممتاز، استمتعي بوقتك يا شارلوت».

ومضى الى الباب يفتحه لها وكأنه يوضح أنه لا يوجد بينهما مزيد يمكن أن يقوله أحدهما للآخر.

وبلغا فندق «المياه الخضراء» وقدّم إيان شارلوت الى السيد فريزر وكان وجه الشبه كبيراً بين الأب والابن غير أن شعر السيد فريزر الكثيف كان يقترب من البياض وكان بوجهه خطوط غائرة.

ووجدت فيه شارلوت شخصاً ساحراً، وعبّر لها عن سعادته لأن ابنه عثر على صديقة في مثل عمره وعن امنيته بأن يراها ثانية ثم استأذن ومضى الى غرفته. وقال إيان بعد أن مضى أبوه:

«يا لأبي المسكين...لقد كبر في السن بسرعة. كان زائد النشاط. لو كانت أمي على قيد الحياة لكانت الأمور أفضل بكثير انه لم يتغلّب على الصدمة بعد وانك لا شك تقدرين ذلك. وأعتقد أن أمك تحس بشيء من الضياع بدون أبيك».

وأومأت شارلوت وقالت:

«هل لك أخوة أو أخوات يا إيان؟»

«نعم...لي أخ وأخت، يكبراني بسنوات ليست قليلة...أختي ماغي ٢٤ سنة وهي متزوجة من كندي ويعيشان في فانكوفر، أما أخي أندرو فعمره ٢٢ سنة وهو في نيوزيلندا الآن. ويبدو أنه سيقيم هناك، وأنا لا أعرف ما سأعمله بعد، وربما اقتفيت أثر والدي اذ ليس لي حتى الآن أي اهتمام خاص».

«وما عمل والدك؟»

«انه صاحب مصنع بسكويت ولا بد أنك أكلت من أنتاجه، وشركته تسمى

باسم الشخصين اللذين أسساها ماكنتير/ فريزر، وكان أحدهما عم والدي».

وبعد ذلك بساعات قليلة كان إيان قد ودعها بدون أن يقبلها بعد أن تمنى لها ليلة سعيدة، وأخذت شارلوت تتمشى على الشاطىء حتى اختفى اليخت بعيداً عن الأنظار، كانت قد استمتعت بالأمسية الى حدّ ما، ولكن ليس الى الحدّ الذي يجعلها تنسى ولو لخمس دقائق ما حدث في المكتب قبل أن تخرج، كان إيان غاية في اللطف، ولم يكن بينهما الانسجام الكامل حقيقة فيما عدا تقاربهما في السن.

كان إيان يتصف شكلا بما يدل على نضج في شخصيته ولكن تجاربه في الحياة وقد أمضى أكثر من ثلثي عمره في مدرسة داخلية كانت محدودة مثلها، وكانت خبرته في المسائل الاجتماعية تفوق رصيده من المعلومات العامة، اذ لم يكن له اهتمام بالمطالعة. وأحست بذلك في الساعات الأولى من المساء فبعد أن تحدث كل منهما عن نفسه لم يجد مادة للحديث يشغل بها الوقت.

وعندما دخلت المنزل وجدت ليام يقف في قاعة الانتظار يتحدث الى اثنين من الضيوف. ورأى شارلوت في الردهة فتوقف عن الكلام لحظة ونظر اليها مباشرة، لكنه لم يبتسم واستأنف حديثه على الفور مع ضيفه.

ولم يسأل اذ استمتعت بالأمسية في فندق «المياه الخضراء» إلا في اليوم التالي. كانت شارلوت في غرفة البياضات تكوي المفارش والفوط وفوجئت بظهوره عند المدخل.

وأجابته على استفساره:

«نعم...أشكرك».

«ومتى تتقابلان ثانية؟»

«لا أعرف».

«تعرفين بالطبع أنه بأمكانك أن توجهي اليه الدعوة لتناول الطعام هنا».

«نعم ولكنني لست متأكدة اذا كنت أريد ذلك أم لا».

«ولم لا؟»

«لست مضطرة الى مقابلته مرة أخرى...أليس كذلك؟»

وعبس ليام وقال:

«ماذا تعنين؟»

ولما لم تجبه قال:

«لا بد أن تتحدثي يا شارلوت...ما الذي أغضبك ليلة الأمس؟»

واستمرت في كيّ البياضات، وهي تقول:

«لا شيء، لقد تعشينا...وتكلمنا ثم أحضرني الى هنا».

«هل قررت عندئذ ألا تقابليه ثانية؟»

كان قد ألقى السؤال في هدوء وبلا اكتراث. لكن شارلوت لم تنخدع وعرفت أنه لم يكن راضيا وبدأت تدرك السبب.

لم يكن في نيتها أن تخدعه، لكنها لم تستطع أن تقاوم رغبتها الآن في أن تتعرف على ما يمكن أن يحدث لو أنها تركته يسيء الفهم لفترة أطول قليلا. فأجابت:

«نعم».

كان يستند الى دعامة الباب، وذراعاه مطويتان. لكنه الآن اعتدل في وقفته وقال:

«أعتقد أنه من الأفضل أن تحكي لي ما حدث بالضبط».

«ليس هناك ما يقال».

وخطا خطوة واحدة جعلته يقترب تجاهها، وأطفأ المكواة الكهربائية وأدار وجهها نحوه، وقال:

«انك تقولين كلاما مطاطاً...أريد أن أعرف ما إذا كان الشاب فريزر قد تصرف بشكل سيء».

وأجابت في برود:

«لا أفهم لماذا؟

«لأنني مسؤول عنك في الوقت الحاضر».

«وماذا عن أمي؟»

«لديها الكثير من المشاغل...والأفضل أن يعهد بمثل هذه المسائل الى رجل».

«في هذه الحال لماذا لم تتدخل قبل ذلك. وكانت أمامك الفرصة، فلقد قابلت إيان قبل أن تقابله أمي، وبدا أنك تستلطفه».

«ولكن أنت قلت انه...»

وقاطعته قائلة:

«أنا لم أقل شيئاً، لكنك أنت الذي توصلت الى استنتاج خاطىء. اذا كان يهمك الأمر حقاً، سلك إيان بطريقة مهذبة تماماً في الليلة الماضية. بل بلغ به الأمر أنه لم يقبلني وهو يودعني».

وأطبقت أصابع ليام على ذراعها، وقال:

«اذن لماذا تترددين في مقابلته ثانية؟»

وهزت كتفيها وقالت:

«انه ليس على شاكلتي».

وقطب وقال:

«لا أدري من أين تعلمت هذه العبارة، ولكن لا تستخدميها ثانية لأنها لا تناسبك. ما الشيء الذي لا يعجبك في إيان؟»

«لا شيء».

وسكتت لحظة ثم أضافت في حدة:

«ولا شيء كذلك لا يعجبني في روب».

«هل تعنين أن إيان صغير جداً بالنسبة اليك؟ كم عمره؟ ثماني عشرة؟ تسع عشرة سنة؟»

«عمره ثماني عشرة سنة، ولكنه ليس ناضجاً بما يتناسب وهذا العمر».

وبدا على ليام وكأنه في موقف فكاهي وهو يسأل في سخرية:

«هل خطر لك أنه ربما حاول أن يهبط الى مستواك؟»

واحمرّ وجهها وكزت على شفتيها، وقالت:

«هذه قسوة... بل ظلم».

«وهكذا الحياة؟ أليس من القسوة أن ترفضي صداقة إيان وهو يستلطفك؟»

وتركها قبل أن تجيب. وخرج قرار الرد على كرم إيان بكرم مماثل من

شارلوت، فلم تكد تمضي ساعة بعد حديثها مع ليام حتى نظرت من نافذة غرفة نومها ورأت إيان يقترب من المبنى وقد أحضر أباه معه. وبادرها السيد فريزر عندما قابلتهما في المدخل قائلاً:

«طاب وقتك يا عزيزتي، أرجو ألا تعتبري حضوري الآن فضولاً، ولكن وصف ابني لجزيرتكم جعلني تواقاً لأراها بنفسي. يا له من مكان جميل. كم كنت أتمنى أن نعرف بهذا المكان قبل أن نحجز في فندقنا الحالي!»

وقال إيان وهو يبتسم لها:

«انه الشعور نفسه بالنسبة إليّ».

ورحبت بهما شارلوت، وبعد أن تحدثت معهما دقائق قليلة ذهبت لتحضر مشروباً. وعندما عادت سألها إيان:

«يبدو المكان على شيء كبير من الهدوء. هل أنت وحدك هنا؟»

«كلا فالآخرون موجودون ويتجولون في مكان ما. وذهب النزلاء للصيد في قارب استأجروه طوال اليوم. وأعتقد أن ليام ذهب الى القرية الواقعة عند الطرف الآخر للقناة. ها هي أمي وأختي قادمتان».

قالت ذلك عندما رأت السيدة مارتن و فلافيا تأتيان من جهة المبنى.

ونهض السيد فريزر من على كرسيه وخلع قبعته، وأقبلت السيدة مارتن، فتحولت ابتسامته الى حيرة ثم الى دهشة وقبل أن تقوم شارلوت بتقديمه الى أمها، وجدته يصيح:

«هيلين! هيلين ليسترا»

وتوقفت السيدة مارتن فجأة، ولثمت قائلة:

«يا للسماء! غوردون!»

وأمسك بيدها في يده وقد أشرق وجهه قائلا:

«الحمد لله...بعد كل هذه السنين، إنها مفاجأة سارة، فكرت فيك كثيراً، ولكنني لم أكن أتوقع أننا سنتقابل ثانية!»

وتمتمت قائلة:

«لا أكاد أصدق... ولا عجب أن بدا وجه إيان مألوفاً لي، يا لغباوتي! كان عليّ

أن أدرك من يكون عندما سمعت اسم عائلته، ولكنني لم أفكر فيك من قبل باسمك الكامل غوردون فريزر. إنما كنت دائما أذكرك على أنك غوردون وأعرف أنك من سلالة ماكنتير».

وسألت فلافيا:

«متى عرف كل منكما الآخر؟»

وشرحت أمها وهي تضحك:

«أوه! منذ زمن بعيد جداً، منذ خمس وعشرين سنة على الأقل، وربما أكثر. انني مندهشة أنك عرفتني يا غوردون».

«عرفتك على الفور فأنت لم تتغيري يا فتاتي العزيزة ولكنني أنا تغيرّت كثيراً».

قالها في مرارة.

«تغيرّ شعرك، ولكن لم يتغير فيك شيء آخر. فابتسامتك هي هي. وكنت سأعرفك مهما حدث، و لا زال بك أثر حادثة الزلاقة كما أرى، أتذكر ذلك اليوم».

وأشار الى جرح صغير في جبهته.

«كانت معجزة أن عنقي لم تنكسر، ظننت أنني متّ! أليس كذلك؟»

«نعم، لدقائق قليلة، فلقد انزعجت، وكانت الدماء قد غطت الثلج و...»

وتوقفت هيلين ثم قالت:

«هل تعرف أنني لم أذكر شيئاً عن تلك الأيام التي قضيناها في العطلة لسنوات...ولكن الآن أتذكر كل شيء بوضوح كأنه بالأمس القريب».

ونظرت الى ابنتيها، وقالت:

«لا شك أنني حدثتكما عن العطلة التي قضيتها في اسكتلندا مع خالي، بينما كان والداي في الخارج، حينئذ كانت أسرة ماكنتير تسكن المنزل الملاصق للخالة فلورا. وكان غوردون يعيش معهم لأنه كان وحيداً أيضاً».

والتفتت اليه وقالت:

«ماذا حدث لهم جميعاً...كنت أتراسل مع مارغريت ماكنتير بعد وفاة الخالة فلورا لمدة، ولكن في النهاية قطع الاتصال بيننا»

وأحست البنتان والشاب أن أمهما وضيفها غوردون سوف يستغرقان في

الذكريات لبعض الوقت، فانسحبوا من المكان ليتركوا لهما الفرصة.

وقال إيان لشارلوت:

«هذا حظ عظيم، لا شك أن حديث أبي مع أمك سوف يساعده على التحسن كثيراً، فالناس في عمره يحبون أن يندمجوا في الحديث حول ما كانوا يعملونه وهم في سن الشباب، كنت قد سمعت عن حادث اصطدام الزلاقة ولكنني نسيته تماماً. وأعتقد أن الشيء نفسه حدث معك».

«كلا فأنا لا أذكر أن أمي حدثتنا به من قبل، سمعنا بعض القصص عن أطفال ماكنتير وحركات الشقاوة التي كانوا يقومون بها، ولكن أمي تميل الى الاستماع أكثر مما تميل الى الكلام».

ومع ذلك فان السيدة مارتن في الأيام القليلة التالية أصبحت كثيرة الكلام على غير العادة مما أثار الدهشة، بل أنهم لم يألفوا أن يروها تضحك كما كانت تفعل مع السيد فريزر.

وعلّقت فلافيا وهي تتحدث عن التغيير الذي طرأ على شخصية أمها قائلة:

«مع أن النكات التي يقولها تافهة...»

لأول وهلة أحست شارلوت بشيء من عدم الاستلطاف للسيد دريبر. ولكن نظراً لأنه كان في الخمسين من عمره على الأقل وكانت زوجته معه، فانها لم تكن تتوقع أن تتحول كراهيتها الغريزية له الى خوف محقق من أن يريد أن تتواجد وحدها معه في مكان واحد.

وفي صباح أحد الأيام بعد مرور فترة على وصول أسرة دريبر الى الفندق وكانت قد وضعت للتو آنية أزهار على المنضدة المقابلة لباب الغرفة فاجأها بطريقة مريبة بأن ضغط على خصرها، وقال:

«صباح الخير، يا عزيزتي، كيف حالك اليوم؟»

وصرخت وهي تبتعد عنه:

«أوه! يا سيد دريبر. كنت أحسبك ذهبت الى الشاطىء».

وتحسّس جيب قميصه وقال:

«نسيت علبة السكاير».

كانت أسنانه وأصابعه اصفرّت من أثار التبغ وأنفاسه تختلط برائحة الشراب. وكان يمكن سماع صوته وهو يعاني من أزمة السعال في الصباح. وعجبت شارلوت كيف تحتمل زوجته أن تقبله. وخمنت انها لم تكن تفعل ذلك إلا نادراً.

ولم تكن السيدة دريبر أقل إثارة للنفور من زوجها بصوتها العالي الأجش وشعرها الذي صبغ بشكل فاضح ورموشها الصناعية التي كانت تضفي عليها مظهر العجائز لا مظهر الشباب كما كانت تريد.

لم تكن هذه أول مرّة يعمد فيها السيد دريبر الى مفاجأة شارلوت. لكنها في المرتين أو المرات الثلاث السابقة حرصت ألا تتواجد معه بمفردها بانتحال مختلف الأعذار.

وعندما قالت في هذا الصباح:

«معذرة!»

وحاولت أن تمضي بعيداً عنه أصرّ على الامساك بخصرها وهو يقول:

«سمعت أن هناك شاطئاً آخر للجزيرة، ما رأيك في أن تصحبيني اليه؟»

«ولكنه شاطىء صغير للغاية. فضلاً عن أنه بلا كراسي أو مظلات».

«ولكنني أريد أن أراه برغم ذلك. أليس بوسعك أن تعطيني نصف ساعة من وقتك؟»

«أسفة يا سيد دريبر، فأمامي مسؤولية تنسيق الأزهار في أماكن متعددة».

«تعالي وبدّلي الأزهار في حجرتي. سأعد لك مشروباً، يبدو عليك التعب».

واعتذرت وهي تحاول أن تتحدث بأدب قائلة:

«لا...أشكرك!»

«سوف تجعلينني أظن أنك لا تستلطفينني».

«ليس الأمر كذلك، ولكنني مشغولة جداً في الوقت الحاضر».

ووجدت ذراعه تحكم حولها فقالت:

«أرجوك يا سيد دريبر!»

وبدا للحظة أنه ليس أمامها مفرّ من أن تخلص نفسها بالقوة من عناقه الكريه، وعندما أوشكت أن تطعن خصره المتكرش بمرفقها سمعت شخصاً يصعد الى أعلى...ربما كان فيوليت.

لكن الحاسة السمعية للسيد دربير كانت أقل حدة وربما ظن أنها عندما تنهدت واسترخت فجأة كانت بذلك لا تعترض على أن يعانقها، فحاول أن يقبلها...ولكنه لم ينجح لأن شارلوت حوّلت وجهها عنه فجأة. ولأن شخصاً أمسك بكتفه وألقى به الى الخلف بقوة جعلته يترنح في الجانب الآخر من الممر...

ووجّه ليام الكلام اليه قائلا:

«ماذا تظن أنك فاعل...أيها الأحمق؟»

وحاول دربير أن يجيب فقال:

«أرجوك أن تفهم...»

وخشي أن يلقي عنفاً أكبر، ولم يجد لديه طاقة يتحدث بها فجرى الى غرفته وأغلق الباب بعنف وراءه.

والتفت ليام الى شارلوت يسألها:

«هل أنت بخير؟»

لم تكن شارلوت تظن أن ليام يمكن أن يصل به الحال الى تلك الدرجة من العنف. ولكنها أدركت أنه يمكن أن يصل به الأمر الى ذلك اذا ما استثير، وأجابته بايماءة من رأسها.

وقال في اقتضاب:

«ينبغي أن نتحدث سوياً، ولكن ليس هنا... بل وحدنا».

وأغلق باب مكتبه في الطابق الأرضي وأسند ظهره اليه وقال:

«اخبريني ما حدث بالضبط»

وأخبرته بكل شيء، وختمت حديثها بقولها:

«أسفة يا... ليام».

وكانت تعني أنها أسفة اذ سببت له أن يتورّط في ذلك العراك مع السيد دربير وهو ينقذها منه.

وعلق في برود:

«نعم! ينبغي أن تتأسفي».

كانت شارلوت تريد منه أن يطيّب خاطرها ولكنها صدمت من إجابته فقد بدا لها أنه يلقي عليها اللوم واعترضت قائلة:

«ولكنها لم تكن غلطتي».

«انها غلطتك بالتأكيد، كان الرجل ينظر اليك نظرات خبيثة منذ حلّ في الفندق، كان ينبغي أن تتحاشي القرب منه».

«ولكنني حاولت ذلك، وكنت أتجنبه، ولم أكن أعرف أنه هنا بل على الشاطىء مع زوجته. ولم أكن أتوقع بالمرة أن يتصرف بتلك الطريقة. انه في مثل سن أبي».

«ان هذا انذار... ولقد حان الوقت لتتحرري من الوهم فأنت لم تعودي فتاة صغيرة بعد. ولا ينبغي أن تنتظري المعاملة الأبوية من أحد حتى ولو كان في مثل عمر دربير».

وعلّقت شارلوت:

«ما حدث هو غلطتك أنت...فلقد جعلتني أحس بأنني صغيرة لدرجة انني لا أثير رجلا كامل الرجولة. فأنت تعاملني كأنما كنت صغيرة جداً وأنت جدي، أتريدني أن أنظر اليك باعتبارك كذلك؟»

واتقدت عيناه بانفعال لم تستطع أن تفهم كنهه، هل هو الغضب؟ لم تكن متأكدة من ذلك.

وأجاب بطريقة مهذبة:

«نعم يمكنك أن تفعلي كذلك».

وتركها وكان ذلك خاتمة الموضوع في نطاق عملها.

ورحلت أسرة دربير وحلّ محلها آخرون. وظلت الحياة رتيبة لمدة أسبوع أو أسبوعين. وفي إحدى الليالي بينما كانت شارلوت تستعد للنوم جاءت أمها الى غرفتها تقول:

«هل أنت متعبة؟ هل يمكن أن أتحدث اليك بعض الوقت؟»

ووضعت شارلوت فرشاة شعرها جانباً وقالت:

«عن أي شيء يا أماه؟»

«الموضوع يخص فلافيا كذلك...وهي قادمة».

وجلست السيدة مارتن على الفراش تتفحص أظافرها، وكانت في الأيام الأخيرة قد بدأت تطليها بطلاء عديم اللون، وعندما وصلت فلافيا قالت:

«اغلقي الباب يا عزيزتي حتى لا يقلق صوتنا كيث».

وأغلقت فلافيا الباب وهي تقول:

«لماذا هذا المؤتمر العائلي؟ هل هناك شيء خطير؟»

«لا... ولكن لديّ ما أقوله لكما، ولا أدري هل هي مفاجأة. فربما تكونان قد فهمتا.»

ونظرت اليهما متسائلة:

وسألتها شارلوت:

«ماذا؟»

«ان غوردون وأنا...غوردون فريزر طلب مني أن أتزوجه».

وحدقت البنتان في أمهما بصمت، ثم سألتها فلافيا:

«وهل قبلت؟»

«لم أقبل بعد...فلست متأكدة من شعوركما وشعور الصبيان نحو هذا الموضوع».

«ولكن، ما شعورك أنت؟ هذا هو الأهم».

«لا تكترثي بنا، ما الذي تريدينه أنت؟»

وقبل أن تجيب الأم، واصلت فلافيا تقول:

«ينبغي أن تقولي نعم أعتقد أنها فكرة عظيمة».

«هل تعتقدين ذلك حقاً؟ ما رأيك يا شارلوت؟»

«اتفق مع فلافيا فالسيد فريزر رجل طيب... ولقد استلطفته منذ أول مرة تقابلنا فيها».

وتنهدت هيلين، واسترخت، وقالت:

«كنت أخشى أن يكون وقع النبأ عليكما سيئاً...ولكن يبدو أنكما كنتما مهيأتين لذلك، هل يوافق الأولاد؟»

وأجابت فلافيا:

«بالطبع...ولم لا يوافقون؟ هل عرف إيان بذلك».

«قال غوردون أنه سيخبر إيان الليلة».

وأضافت شارلوت:

«أعتقد أن إيان فطن الى ذلك فقد قال لي منذ أيام أنه يظن أن أباه سيقيم هنا بصفة دائمة، وقالها بطريقة تلفت النظر، ولكنني لم أدرك انذاك ما كان يعنيه».

وهزت أمها رأسها وقالت:

«اظن أن إيان لم يفهم قصد أبيه فغوردون لا يزال في السادسة والخمسين من عمره وليس في نيته أن يعتزل الخدمة بعد، وحالته المرضية مؤقتة وليست خاتمة لحياته العملية. وسوف نعيش في بيته الذي يقع بالقرب من ادنبره».

وسألتها فلافيا في قلق:

«متى؟ وبعد كم من الوقت نرحل؟»

«لا زال أمامنا الوقت، ولم نتوصل بعد الى خطة محددة».

«هل تتزوجين هنا أم هناك؟»

وقالت هيلين:

«من الممكن أن يتم الزواج هنا، ولكن حتى ذلك لم يتحدد بعد لم نقرر شيئاً حتى الآن».

وأحست شارلوت ببرودة وصداع وسألت:

«وماذا عن ليام؟ هل عرف بالموضوع؟»

وابتسمت أمها وقالت:

«أعتقد أنه ربما فطن الى ذلك، فليام ذكي، وسأنزل للتحدث معه الآن».

وقالت شارلوت في تأثر:

«ولكنه يحتاج الينا، ولا نستطيع أن نهجره».

«لا أعتقد أنه يجد صعوبة في استخدام موظفين أكفاء، وغوردون معجب جداً بنشاط ليام وتفكيره، ويعتزم أن يسانده مالياً، ويعتقد أن الفندق استثمار ناجح والواقع أن ليام يحتاج الى رأس المال أكثر بكثير من حاجته الينا. وسوف تتحسن أحواله كثيراً بعد أن نتركه».

ونهضت تقول:

«ليباركهما الله. انكما على درجة كبيرة من التعقل والفهم طابت ليلتكما يا عزيزتيّ».

وقالت فلافيا بعد أن انصرفت أمها:

«تخيلي أن ماما كانت تخشى ألاّ توافق، في رأيي أنها فكرة ممتازة. لم أكن أحلم أبداً بأنها تتزوج من جديد وأن نجد الحَل لكل مشكلاتنا».

وقالت شارلوت في صوت خفيض:

«كل مشكلاتك أنت».

«ماذا تعنين؟ ألا تريدينها أن تتزوجه؟»

«أريدها سعيدة بالطبع، ولكنني بصفة خاصة لا أريد أن أذهب الى اسكتلندا».

«بأمانة يا شارلوت، أنا لا أفهمك، أمضينا كل حياتنا سجناء في الغابات المنعزلة، بعيدين عن كل شيء مثير، ألا تريدين أن تري العالم؟ ألا تريدين أن تعيشي ولو قليلا؟»

«أنا أعيش هنا وأحس بالانتماء الى هذا المكان، انني أحبه».

وقالت فلافيا:

«حسناً، بامكانك أن تأتي الى هنا باستمرار في المستقبل، اذا شئت».

وأحست شارلوت في الأيام التالية كأنها منجرفة في دوامة. ولم يكن بوسعها برغم ما تبديه من مقاومة وعدم اكتراث أن تتفادى تلك الدوامة. كان هناك شخص واحد يستطيع أن ينقذها. ولكنه لم يبد عليه أن يدرك المأزق الذي تجد نفسها فيه. ومن سخرية القدر أن الشخص الذي أحس بما تعانيه كان زوج أمها المنتظر.

وسألها ذات يوم وهما يجلسان وحدهما:

«هل أنت آسفة يا شارلوت لأنك عقدت صداقة مع إيان؟»

ونظرت اليه في صمت لحظات ولم تستطع أن تتظاهر بأنها لم تفهم ما يعنيه، وقالت في هدوء:

«كلا أنا سعيدة بهذه الصداقة التي تسعد أمي. اذ كانت حياتها قاسية وأنا لمسرورة بأنها سوف تكون هانئة من جديد».

«ولكنك لا تنظرين بعين الأمل الى مستقبلك أنت؟»

وهزّت شارلوت رأسها وقالت:

«لا أحد من الآخرين يشعر بالانتماء الى هذا المكان. اما أنا فأحس بهذا الاحساس. ربما كنت انكليزية بالمولد، ولكن فيما عدا ذلك أنتمي الى هذه الجزيرة».

وابتسم وقال:

«ولكن هذه ليست الجزيرة الوحيدة في العالم كما تعرفين فهناك جزر في اسكتلندا أيضاً. وهي جميلة للغاية، ولن تحرمي من الأشياء التي تحبينها كالسباحة ورياضة القوارب وغيرها في الصيف».

وقاطعته قائلة:

«ولكن الصيف قصير للغاية هناك، فهو يدوم أسابيع قليلة، و إيان يقول ان الجو نادراً ما يكون حاراً هناك».

وعلق السيد فريزر قائلاً:

«السعادة لا ترتبط بالمكان يا شارلوت، بل تعتمد على الصحبة وحتى لو كان عمرك أكبر بسنة أو سنتين واستطعت البقاء هنا أعتقد أنك تحسين بالشعور نفسه عندما يذهب عنك أحبابك وأعز من تعرفين».

وتجرأت على الاجابة:

«وهذا هو الذي لا يفهمه أي شخص... إن أعز شخص لديّ هو ليام».

وتقرر بعد مناقشات طويلة أن يتم حفل الزفاف في اسكتلندا، ورحل إيان وأبوه الى الوطن قبل رحيل أسرة مارتن ببعض الوقت.

ومما أثار الدهشة أن ليام رفض عرض غوردون فريزر بالمشاركة في استثمار الفندق معتذراً بأنه قد يقرّر أن يتخلى عن المشروع فجأة، ومع ذلك فانه كما توقعت هيلن لم يجد صعوبة في استخدام عمال من القرية على الجزيرة الرئيسية بعد أن نسي الناس السمعة الشريرة.

ولم تستطع شارلوت أن تفهم سبب عدم اكتراث ليام الواضح برحيل أفراد أسرة مارتن. هل كان من الممكن أمام حبها العميق له ألا يبدي أية مشاعر تجاه أي من أفراد الأسرة.

في الليلة الأخيرة التي قضتها الأسرة على الجزيرة كانت شارلوت تعاني من بؤس شديد جعلها تحس باليأس. وحين أوى الجميع الى فراشهم مبكرين استعدادا للرحلة الطويلة التي سيقومون بها في اليوم التالي، بقيت هي بدون أن تبدل ملابسها، وانتظرت لمدة نصف ساعة حتى ساد الصمت. وفتحت باب غرفتها في حرص وتسللت تهبط الدرج الخلزوني العريض.

ووجدت شعاعاً من الضوء يتسرب من أسفل باب غرفة ليام كما توقعت. واخذت نفساً عميقاً ثم نقرت على الباب وسمعت صوته يقول:

«ادخل».

كان يتمدد على كرسيه المريح وعلى حجره كتاب والى جانب مرفقه كأس فيه بعض الشراب وبين أصابعه سيكار. كان الرضى بادياً عليه تماماً. وعجبت كيف يحسّ بذلك الرضى بينما تعاني هي كل اليأس.

وعندما عرفها، ارتفع حاجباه، وقال:

«أهلاً يا... شارلوت! أما زلت يقظة؟ كنت أظن أنك استغرقت في النوم الآن، وخاصة أنك ستستيقظين في وقت باكر غداً».

«أريد أن أتحدث اليك يا ليام اذا أذنت».

«حسناً!»

ونهض وأثر دهشتها عندما قال:

«أفضل أن نتمشى على الشاطىء حتى لا نزعج أصواتنا الآخرين، فالأصوات تسري بسهولة في الليل».

«حسناً».

وخيل اليها أن ضوء القمر سيساعدها على أن تبوح بمكنون نفسها...وتبعته عبر الردهة وهي ترتعد من التوتر العصبي.

٧ ـ ما هو الحب يا سيدي؟ لا أعرف... ولكن سلطانه قاهر..

«كاليبو»

وفي الطريق الى الشاطىء، لم ينبس أحدهما بكلمة، هناك جلس ليام، وسألها وهو يجرف حفنة من الرمال:

«ما الموضوع؟»

«لا أريد أن أرحل غداً».

«ولكن يجب أن ترحلي يا شارلوت».

وتخلت عن كبريائها وقالت:

«انك لا تفهمني... أنا أحبك، أحبك يا ليام».

ومضت لحظات بدون أن يجيب، وظلّ يرقب الرمال تنساب من راحة يده ثم قال:

«ما زلت صغيرة يا شارلوت، ولذا لا تخفين ما يختلج في جدانك. كنت أعرف منذ مدة بهذا الشعور».

وقتمت في صوت أبح:

«ربما ظننتها دعابة... أو أنني صغيرة على الحب».

«كلا فالحب الأول أقوى حب وهو أكثر الانفعالات ألماً».

«انه ليس ما تسميه الحب الأول... انه حب حقيقي، دعني أبقى معك. أرجوك! من غيري أنسب اليك؟»

«انسانة تقترب مني في السن».

«ولكن ما أهمية هذا؟ أعرف أنني لست جميلة أو ذات مركز اجتماعي مثل تارا، ولكنك تحبني، وفي أول مرة تقابلنا عانقتني. انا أكبر سناً الآن. انني أمرأة».

وقال ساخراً:

«حقاً يا شارلوت؟ أشك في ذلك».

«نعم، عانقني ثانية وسأثبت لك ذلك».

وخرج منه صوت كأنه ضحكة مكبوتة أو أنة غاضبة، بينما بدأت سحابة تغطي وجه القمر ولم يعد بوسعها أن ترى وجهه بوضوح.

وقال في هدوء:

«أنت التي تطلبين...»

وجذبها بين ذراعيه برقة، وتسلل ذراعاها حول عنقه ولكن عندما عانقها ارتعشت وتصلبت ذراعاها.

وقتم في أذنيها:

«هيّا الى غرفتي الآن!»

وتصلّب جسمها وفتحت عينيها، وهمست:

«غرفتك؟»

«ولم لا؟ اذا كنت أحببتني!»

«لكنني ما قصدت...»

وأسكتها بعناق خشن لكنها صارعت لتخلص نفسها:

«لا...يا ليام! لا تحاول!»

«ظننت أنك أحببتني».

«نعم، أحبك، ونعم كبرت، ولكن ليس هذا هو الحب».

وأطلقها في قسوة:

«انا هكذا...ما الذي صوّر لك أن بإمكانك تغييري؟»

«لم أتصوّر ولكنك لست هكذا!»

«انا أنا ومعظم الرجال هكذا...ففي الأمور تكون المبادرة من جانب الرجل، فان أتت من جانب المرأة يساء فهمها، ولعلك تذكرين هذه الحقيقة في المستقبل».

لم تكن لتصدق أنه يمكن أن يتحدث بتلك الطريقة الوحشية، وسألها بمرارة:

«ألم يخطر لك...من قبل أنني لو كنت مشغولا بك لتصرفت أي تصرف...انك لا تحبينني ولكن مفتونة برجل لا وجود له إلاّ في مخيلتك الصبيانية».

وأحست بصدمة كبيرة؛ كان كثيراً ما يلجأ الى اغاظتها ولكن لم يسبق له أن سخر منها.

وانفلتت مبتعدة فأمسك بمعصمها يقول:

«والآن! انك لا تتحملين الانتظار حتى ترحلي غداً! ربما كان الوداع هو العلاج».

وخلصت نفسها وهي تقول:

«انه كذلك».

«ليس لك وحدك...فمجموعة الأسرة المحيطة بي أصبحت شيئاً لا يطاق...الوحدة ليست مشكلتي على الاطلاق».

وأسرعت شارلوت الى الهروب:

لم يكن بإمكان شارلوت أن تخفي جفنيها المتورمتين في الصباح، ولكن أحداً لم يعلق، كان الجميع يشعرون بأسى الفراق، حتى فلافيا كانت تحاول أن تكبت مشاعرها. وتغيّب ليام عن الافطار ولم تره شارلوت إلا في الردهة قبيل العبور الى اليابسة. وودع الجميع فيوليت على الشاطىء. وبكت فلافيا كثيراً بينما لم يبق لشارلوت دموع تذرفها، ووقفت على الميناء عند القرية تنظر عبر القناة الى الجزيرة التي لن تراها ثانية، كانت قد أحبتها أكثر من أي فرد آخر لكنها الآن كانت أول من أدار ظهره أليها.

ووصلوا الى المطار بينما لا يزال أمامهم بعض الوقت قبل أن تقلع الطائرة، ثم حان وقت الرحيل.

وصافحت هيلين ليام قائلة:

«لن ننسى كرمك يا ليام. أرجو أن تعنى بنفسك!»

وقبّل وجنة هيلين ووجنة فلافيا والتفت الى الأولاد ثم قال:

«وداعاً يا شارلوت ورحلة سالمة».

ورفعت بصرها اليه وقالت:

«وداعاً»

ولم يحاول أن يقبّلها أو يصافحها.

بدأت الطائرة تضاعف من سرعتها على المدرج وألقوا جميعا النظرة الأخيرة ولوحوا بأيديهم من النوافذ فيما عدا شارلوت التي فتحت أحد كتيبات الطيران لتدرس خريطة الجزر. ولكن جزيرة سوليفان كانت أصغر من أن تسجل على الخريطة.

وسألتها أمها وهي تمسّ ذراعها في عطف:

«هل أنت بخير يا عزيزتي؟»

«نعم، ولماذا لا أكون كذلك؟»

«كنت أخشى أن يعتريك شيء من الاضطراب».

«أنا لا يضايقني الرحيل».

حلقت الطائرة فوق المناطق غير الآهلة من شمال الاطلسي وكان الوقت ليلاً وقد أخلد الجميع الى النوم وتذكرت ليام وهو يقول: «الحب الأول أقوى حب وهو أكثر الانفعالات ألماً». وكيف أطلقها على عجل عندما قاومت وكيف حلّقت فيما قبل ذلك بقليل في آفاق السعادة، وأقنعت نفسها بأن كل ما قاله لم يكن إلاّ تمثيلاً.

وهبطت الطائرة في انكلترا فأحس الجميع بالسرور، وكانت أسرة فريزر في الانتظار، ووكزت فلافيا أختها وهما تركبان السيارة الكبيرة قائلة:

«انظري! أنها لا تمطر».

وتوقفت السيارة عند إشارة مرور فرأت شخصين من الجزيرة، شريكين في المنفى، وقد انتزرا بملابس شتوية رمادية بدلا من الملابس القطنية الفاتحة التي يلبسانها في بلدهما، وكانا يضحكان معاً وخطر لها: «اذا كان بوسعهما أن يحتملا البعد عن الوطن فسيكون بوسعي أنا ذلك».

وختمت شارلوت قصتها قائلة:

«كان ذلك منذ أربع سنوات والآن أن الآوان، انني عائدة ولكنني أحس بخوف مفاجيء. أخبريني برأيك يا أنيتا، هل احبه حقاً؟ أم أنه انفعال مراهقة؟ وماذا لو

وجدته قد تغير؟ بل ماذا لو كففت عن حبه الآن؟ هل أكون أسوأ حالاً؟»

كانت أنيتا تنصت باهتمام، وسألتها:

«ألم يكتب اليك؟»

«لم يكتب اليّ، ولكنه ظل يكتب الى أمي بعض الوقت».

«وهل تعرف أمك بخبر رحلتك؟»

«كلا، لم أتحدث اليها ولا الى أي شخص على الاطلاق عنه قبل الليلة. لا بدّ أن تكون قد تخيلت شعوري نحوه عندما هجرنا الجزيرة ولكنها لم تقل شيئاً، وربما ظنت أن مشاعري عندئذ كانت مشاعر مراهقة سرعان ما تزول. هل هي كذلك؟»

وعلقت أنيتا:

«لست متأكدة، ولكن القليل جداً من الناس من يصل الى النضج في سن الثامنة عشرة، ومن الخطأ أن تتزوج الفتاة في تلك السن، لكني لم أسمع عن مشاعر مراهقة تستمر لأربع سنوات. أعتقد أنك ربما أحببته حقاً. هل بينك وبين نفسك تتمنين أن يكون وقع في حبك بالفعل؟»

«لا، فأنا متأكدة أنه لم يكن يحبني، ولكن الأمر يختلف الآن، فلقد تعلمت الكثير في هذه السنوات الأربع».

«واذا قدّر لك أن تقابليه، فهل لا زلت تريدينه؟»

«بشرط ألاّ يكون ارتبط بأخرى».

«لا أعتقد أن هذا محتمل».

«ربما! ولكن ألا يكون من سخرية القدر أن اقضي سنوات أربع أدخر أجر السفر، وأخيرا أجده تزوج».

وتهدج صوت شارلوت ، وعندئذ قالت أنيتا:

«سهرت كثيراً وأنت منهكة، انهضي الى الفراش، سأحضر لك مشروبا ساخنا».

«اخترت وقتا مناسباً للغاية لأحكي قصتي، يا للمسكينة أنيتا، ستكونين في غاية الارهاق غداً».

«هراء انا سعيدة، ولم أشعر بالضجر على الاطلاق، لم أكن أفهم لماذا تتجاهلين الرجال الذين يهتمون بك، والآن فهمت السرّ، لا بدّ أنه يستحق اهتمامك، ذلك

الرجل ليام هاملتون».

«نعم، هو كذلك، أو على الأقل كنت أظنه، منذ أربع سنوات».

وأحست شارلوت بالكآبة من جديد، ودفعتها أنيتا برقة نحو غرفتها وهي تقول:

«هيّا، ادخلي، لن أتغيب كثيراً».

وسألت شارلوت عندما لحقت بها تقول:

«ألم يخطر لك أن تكتبي اليه لتخبريه أنك تفكرين في العودة لقضاء إجازة؟ ولتزوري الأماكن التي كنتِ ترتادينها».

«فكّرت في ذلك لكنني خفت، فربما لا يريد أن يراني ثانية، أريد أن أراه ولو لمرّة واحدة، لأتأكد من شعوري نحوه».

«أنا لا أقول بأنك شارلوت مارتن الوحيدة، ولكن من المحتمل أن يعرف عن طريق إجراءات الحجز أنك شارلوت التي يعرفها وربما كتب الى أمك للتحقق من سفرك».

«لا فقد حجزت باسم مستعار».

«ماذا؟»

«حجزت باسم كلير مانيارد واخترت كلير مانيارد ليتفق الاسم مع الحروف الأولى المنقوشة على حقيبتي».

«اذن سوف تستطيعين أن تختلسي النظر اليه قبل أن يتعرف عليك».

«لا أعتقد بوجود فرصة ليتعرف عليّ تواً...ولسوف أضع نظارة قاتمة، وشالاً على شعري».

«واذا ما تبين لك أنه لم يكن بحال الرجل الذي أحببته؟»

«عندئذ تكون لي الحرية في أن أحب شخصاً آخر».

ووضعت كفيها فوق وجهها وقالت:

«ولكنه لن يتغير، أنا واثقة، ليس هناك رجل مثل ليام».

وسألها كاتب الاستقبال، وهو يستكمل الاجراءات:

«هل استمتعت برحلة طيبة.. يا آنسة مانيارد؟»

«نعم... أشكرك».

لم تكن تتوقع أن تجد تغييراً يشمل كل شيء تقريبا. وملأت البيانات المطلوبة وهي في حالة تشبه الدوار، وحرصت على ألاّ توقّع باسمها الحقيقي.

وشكرت الشاب الذي حمل حقيبتها الى الطابق العلوي وأعطته البقشيش.

كان المبنى في أول الأمر يضمّ أربع غرف كبيرة شامخة على الواجهة. لكل منها نافذتان وباب ذو كوّة في أعلاه يؤدي الى الشرفة الخارجية، ولكن هذه الشرفة قسمت الآن الى أربع شرفات منفصلة، وتحولت الغرف الداخلية الى أجنحة وخصصت لشارلوت الغرفة التي كان ليام يتخذها مخدعاً، وأصبحت الآن تضم غرف الجلوس والنوم وحماماً صغيراً. وأستعين بسقف صناعي لتصحيح ارتفاعات السقف الأصلي. وبدا الجناح في طراز أمريكي ينسجم مع الطريقة التي تحدث بها كاتب الاستقبال.

وجذب انتباهها لأول وهلة بطاقة دعوة من الادارة وضعت الى جانب برميل شراب تقول:

«اخدم نفسك بشراب كوكتيل جزيرة مانغو».

وخدمت شارلوت نفسها وخرجت وكأسها بيدها وأسندت مرفقيها الى الدرابزين تحدق في دهشة الى الحديقة الممتدة بين المبنى والشاطىء في تنسيق وجمال.

كان بعض النزلاء يتمدد على حشايا من الهواء المضغوط أو على مقاعد وثيرة تحت سعف النخيل، وكان أحد الخدم يلبس سترة بيضاء ويقوم بتقديم المشروبات بينما يهرول زميله الى الفندق ومعه صينية مليئة بالكؤوس الفارغة.

وتردد في سمعها صوت من الماضي... إعلان عاطفي صدر عن فتاة صغيرة تقول: «سأشتري الجزيرة في يوم ما وأعيش هنا وأزيل كل الأشجار بين المبنى والشاطىء وأنشىء حديقة جميلة... سيصبح أجمل مبنى... وسيتمنى جميع الأثرياء الأمريكيين أن يشتروه... لكني لن أبيعه حتى بمليون دولار».

كانت الجزيرة تساوي الآن مليون دولار... ولكن لم يكن حلمها هو الذي

يتحقق، لقد انمحت جزيرة سوليفان مركز السحر والغموض الى الأبد. وأصبحت جزيرة مانغو حلم السائح وليس حلمها.

وأطلقت تنهيدة: انها ليست بحال كما رأيتها... ربما كان كل شيء وهماً وربما كان ليام هو الآخر كذلك».

وقررت أن تبقى في غرفتها حتى المساء لتستريح. فاستحمت وتعطرت. وهبطت الدرج الى العشاء ولتسأل عنه.

كان للتليفون الموضوع في البهو ثلاثة أزرار... أحدها لخدمة الغرف والثاني للمضيفة والثالث للمكتب، وضغطت شارلوت على الزر الخاص بالمكتب. وسمعت صوتاً يجيبها فقالت:

«الآنسة مانيارد من الجناح رقم ٦ تتكلم، هل يمكن أن أتحدث الى السيد ليام هاملتون؟»

«أسف يا آنسة مانيارد! غير ممكن الآن! هل ثمة مشكلة؟ أو مساعدة؟»

«لماذا لا أستطيع التحدث الى السيد هاملتون؟»

«السيد هاملتون غير موجود...ليس هنا يا آنسة مانيارد».

«اذا أين هو؟»

«في رحلة عمل يا سيدتي، ولكن السيد لندو على استعداد لخدمتك. وسأوصله بك!»

«لا انتظر! لا تكلف نفسك العناء! كنت أريد أن أتحدث الى صاحب الفندق؛ متى يعود؟

«يوم الجمعة؟»

«فهمت...أشكرك!»

وأعادت السماعة الى مكانها.

يوم الجمعة! خمسة أيام انتظار! خمسة أيام! يا الله! لم يكن قد خطر لها على الاطلاق أنه ربما يكون مسافرا، يا لسخرية القدر!

وتعثرت أقدامها وقد أنهكتها الرحلة الطويلة واتجهت الى غرفة نومها وتمددت على الفراش واستسلمت للبكاء..ثم استغرقت في النوم بعد فترة.

واستيقظت وكانت الغرفة أكثر ظلاما وعرفت أنها نامت قرابة الساعتين. وأدركت من الضوء الذي ينفذ من خلال الدلف الخشبية أن الوقت قبيل الغروب بدقائق وقد تحول الوهج الناري من الأضواء البنفسجية والحمراء والذهبية الى ليل. ثم تذكرت الأيام الخوالي التي كانت تعرف فيها الوقت لا من عقارب الساعة بل من لون البحر، وظل الشجر وحرارة الظهيرة، ونسمات العطر اللطيفة.

وسمعت صوت موسيقى لم تكن متأكدة من مصدرها وكانت مصابيح الحديقة قد أضيئت ولبست فستاناً قصيرا أخضر من الحرير الجرسيه لتحضر به العشاء.

كانت أخر نزيل دخل قاعة الطعام، وابتهجت عندما وجدت ماندتها في أحد جوانب القاعة. وكان بوسعها أن ترقب الآخرين بمنأى عن عيونهم، وتفحصت قائمة الطعام.

واختارت صنفا لذيذاً من الحساء وهي تمعن النظر في وجوه النزلاء لكنها احست بشخص يتفحصها من مائدة خلفها. والتفتت بطريقة عارضة، فتقابلت عيناها وابتسم لها. واستطاعت أن ترجح أنه شاب أمريكي جاء وحيداً.

أحست به طوال العشاء يحدق اليها. كانت طريقة الطهو ممتازة، والخدمة كذلك ولم تكد تفرغ من تناول الحلوى حتى جاءها الخادم يسألها:

«فنجان قهوة يا سيدتي!»

«شكراً... سأشربها في قاعة الانتظار».

وشكرته شارلوت وتركت قاعة الطعام. وقررت أن تستطلع التغييرات التي أدخلت على مؤخرة المبنى. خطر لها: اذا كانت فيوليت هنا فسوف أقابلها أن عاجلا أو أجلا...ولن تتنكر لي».

واكتشفت وجود ملعب للتنس وعددا من الممرات المضاءة بالمصابيح تتفرع أمام مجموعة من الأكواخ تحمل أسماء مثل كوخ دولفين كوخ المرجان وغيرها...وكان من الواضح أن ليام بنى العديد من الأجنحة المتسلقة التي يفضلها الأزواج الجدد وأولئك الذين لا يحرصون على الاستمتاع بالسهرات داخل المبنى. وعادت لترى التغييرات التي أدخلت على قاعة الانتظار ووجدتها

قد شغلت بأفخر الأثاث.

وأحضر الخادم القهوة وأخذت تقلب صفحات المجلة الأمريكية المعروفة باسم هوليداي وسمعت صوتا يقول لها:

«أعتذر عن مضايقتك على مائدة العشاء، لم أستطع أن أقاوم رغبتي في أن أرسمك، ولكنني لن أكرر ذلك».

كان هو الأمريكي الذي يقيم بمفرده في الفندق، ووضع صحيفة على المجلة التي أمامها، ووجدت أن الصورة لها بالفعل وقد رسمت بدقة ومهارة وسألته:

«وكيف عرفت أنني تضايقت؟»

«لأنك جلست في توتر حتى ألهاك الطعام عني. أكرر اعتذاري لقد جذبت الطريقة التي تصففين بها شعرك انتباهي، والرقبة الطويلة علامة الجمال ليس هذا اطراء ولكنها الحقيقة.

وسألته:

«هل الرسم مهنتك؟»

«نعم، جئت الى هنا لأسباب صحية من جهة ولأقوم بتسجيل بعض الانطباعات كواجب مهني من جهة أخرى، آسف لم أحضر لأقص عليك قصة حياتي ولكن لأعتذر، وسأجلس مستقبلاً في مكان آخر، أسعدت مساء يا آنسة!»

وخرج وقد ترك الرسم معها، وكان يعاني من عرج بسيط وعجبت كيف عرف اسمها وفكرت في الأسباب التي وراء علة ساقه وظنت أنها تستلطفه الى حد ما.

وصعدت الى الطابق العلوي وفي نيتها أن تنام مبكرة لتصحو مع الشروق وتستحم في البحيرة قبل أن يصحو الآخرون، لكنها قابلت على الدرج العريض امرأة من الجزيرة ذات صدر بارز وفخذين عريضين تلبس فستانا بحريا أنيقا له ياقة بيضاء، وتحمل سلة من المفاتيح ولوحا للكتابة وتثبيت الأوراق.

وابتسمت المرأة وكادت تواصل سيرها لكن شارلوت أمسكت بذراعها قائلة:

« فيوليت! ما أروع أن أراك ثانية!»

وتوهجت عينا فيوليت وهي لا تكاد تصدق:

«يا إلهي! شارلوت الصغيرة!»

واغرورقت عينا شارلوت قطرات الدموع من عيني فيوليت التي ألقت بالمفاتيح وعانقتها عناقا حاراً؛ وانهالت الأسئلة من كل منهما ثم توقفتا وهما تضحكان من الاضطراب الذي وقعتا فيه.

وقالت شارلوت:

«لا تستطيع أن تتكلم هنا، لنذهب الى غرفتي. لكن لا تخبري أحدا يا فيوليت أنك تعرفينني، الاسم الذي ينادونني به هنا هو كلير مانيارد، أريد أن تكون مفاجأة لليام عندما يعود من باراباذوس كيف حاله يا فيوليت؟ هل تزوج؟»

« ليام؟ يتزوج؟ ليس لديه وقت للزواج يا حبيبتي، لقد تزوج العمل. تغير كثيرا بعد رحيلكم انه يريد أن يجعل الفندق أفخم من قصر باكنغهام.»

وفتحت شارلوت الباب، وقالت:

«هل تظنين أنه سيسر لرؤيتي؟»

«لا أتصور أنه ينساكم بعد المساعدة التي قدمتموها اليه».

«تعالي واحكي لي أخبارك، انك تبدين وكأنك رئيسة مستشفى في هذا الزي، هل هو زي العمل الرسمي؟»

وقهقهت فيوليت:

«أنا مديرة الفندق الآن، ومن واجبي أن ألبس زياً أنيقاً».

وتحدثتا لوقت طويل، وقالت فيوليت:

«كنت أظنك تزوجت الآن، ولديك أطفال يا آنسة شارلوت؟»

«أوه يا فيوليت! لست الآنسة شارلوت بل ناديني حبيبتي. كما كنت تفعلين حتى أحس بالسعادة من جديد. ألست سعيدة هناك؟»

«أوه! نعم، ولكنني كبرت الآن، والحياة ليست بالبساطة كما كانت فيما مضى. أرجو أن تحتفظي بوجودي سراً حتى يعود ليام.»

وانصرفت فيوليت الى عملها بعدما تمنت لشارلوت ليلة سعيدة.

كانت ظلال المبنى لا تزال تمتد على معظم الحديقة عندما خرجت شارلوت

لتستحم في الصباح التالي وانزلقت في الماء وقد أطلقت تنهيدة تعبّر عن سرورها الكامل. ولم يكن ثمة شبه بين مياه البحر في انكلترا وهذه المياه الدافئة اللامعة التي عانقتها بحب لا يقل عن حب فيوليت وعناقها في الليلة السابقة.

وفكّرت بصوت عال وهي تغوص الى ما تحت السطح تقول للمياه: «انك لم تتغيري».

لم تمكث طويلاً تحت السطح فقد عانت من نقص التدريب، كما أنها خشيت أن تحمر عيناها فتشوه الصورة التي يراها ليام عندما يتقابلان بعد الزمن الطويل الذي انقضى.

وعادت الى سطح الماء من جديد تسبح في استرخاء كما يفعل السباح.

وكان هناك شخص آخر استيقظ في تلك الساعة الباكرة: السائح الأمريكي الذي لم تكن قد عرفت اسمه بعد. وقد وصل الى المكان في الوقت نفسه حين خرجت هي من المياه وقال:

«صباح الخير، حسبت أنني الطائر الوحيد الذي يحوم في هذا الوقت.»

وخلعت غطاء رأسها، ونفضت الماء عن شعرها الطويل وهي تقول:

«إنه أفضل الأوقات لي».

وسألها وهو يعاونها على ارتداء إزارها:

«هل حضرت الى هنا من قبل؟»

«نعم... وهل سبق لك انت ذلك؟»

«لا، هذه أول زيارة لي».

وجفّفت وجهها وأخذت تستنشق هواء الجزيرة الطلق، وقالت في نشوة:

«أشعر بأنني بعثت الى الحياة، وأحس أن بوسعي أن أدفع عجلات إحدى العربات».

وسألها مبتسماً:

«أطلب لك طعام الافطار هنا اذا رغبت!»

«سأطلبه بنفسي، ويمكنك أنت أن تستحم، ولكن... هل اطلب لك كذلك كم ستمكث في الماء؟»

«لن أمكث طويلاً».

وقابلت شارلوت أحد الخدم وهي في طريقها الى المبنى، وطلبت الافطار لشخصين... وعندما عادت الى الشاطىء كان الأمريكي يقف وقد وصل الماء الى رقبته، وكان قد خلع رداءه وتركه قرب حافة الماء. وعندما خرج ارتداه قبل أن يجتاز الرمال الى حيث جلست، لكنها رأت شيئاً أراد أن يخفيه انه آثار جرح مروع في ساقه. وعرف أنه رأته فقال بعد أن جلس الى جوارها.

«أسف... كنت أود أن أخفيه... فانه منظر بشع».

«ولكن كيف وقع ذلك؟»

«في حادث سيارة وكدت أن أفقد ساقي لولا حسن حظي، أرجو أن تنسي أنك رأيتها، أخشى أن يطلبوا مني مغادرة الفندق لأن منظر ساقي مزعج للنزلاء».

«ليس فيها ما يوجب الضيق للآخرين، ومع ذلك فهناك شواطىء صغيرة حيث لا يراك أحد وسأصحبك الى أحدها إذا أحببت».

«أشكرك! ما رأيك في أن يكون ذلك اليوم؟ اذا لم يكن لديك برنامج آخر».

«انا حرة حتى يوم الجمعة».

«حسناً... حالما تنتهين من الافطار سأحجز قارباً ونخرج للاستطلاع».

وواصل يقول:

«اسمي بنيامين بالمر وينادونني بن».

وأخذته الى أحد الخلجان الصغيرة بين الجزيرة والموقع المعروف باسم هورتينسيا.

وسبحا وأخذ حماماً ثم سبحا من جديد، وحان الوقت لفتح سلال الطعام التي كان الفندق قد أعدها لهما، وسألها:

«ماذا عن يوم الجمعة؟ قلت أنك حرة حتى ذلك الوقت».

«أتوقع أن أقابل صديقاً قديماً».

«رجل».

«نعم!»

«اغفري لي فضولي، ولكن، هل أنت مرتبطة بشخص آخر؟»

«لماذا تسأل؟»

«لأنك في الدقيقة التي عرضت فيها أن تريني هذا المكان بدا عليك شيء من الضيق».

«انك شديد الملاحظة»

وحوّلت مجرى الحديث فقالت:

«أعتقد أنك شديد الحساسية لحالة العرج التي تعاني منها، انها حالة بسيطة للغاية، الرجال ينظرون الى سيقان الفتيات، ولكن الفتيات لا ينظرن الى سيقان الرجال، فضلاً على أنه لديك كل المقوّمات».

وضحك وقال:

«حقاً؟ وما هي تلك المقوّمات؟ بالتأكيد ليس منها المال...برغم وجودي في هذا المكان لبعض الوقت القصير».

وتناولا طعام العشاء معاً، وعرفت أنه سبق أن تزوج وهو في العشرين بزميلة له في الدراسة وعاشا في سعادة لمدة خمس سنوات.

ولم يكن قد مضى أسبوعان على زيارتها للطبيب الذي أكد أنها حامل قاما برحلة لزيارة والديها، وشاءت الأقدار أن تصدمها سيارة تخطّت شارات المرور. هكذا وماتت ليزا متأثرة بجراحها بعد ثلاثة أيام.

ودمدمت شارلوت وقد روعتها رواية الحادث:

«أوه... بن!»

«ما كان ينبغي أن أقص عليك ذلك... وفي أي حال فقد استمتعنا استمتاعاً كاملاً بخمس سنوات بينما هناك أناس لا يستمتعون ولو بقدر يسير من حياتهم».

وعندما حان الوقت ليقول كل منهما للآخر ـ طابت ليلتك ـ أحسّت شارلوت كأنما تقابلا منذ زمن بعيد وذهبت في الصباح التالي لتأخذ حمامها الباكر.. فكان قد سبقها الى الشاطىء وأمضيا معاً يوماً ممتعاً.

ويوم الأربعاء ذهبا الى العاصمة وأخذ بن معه أوراق الرسم وأمضى قرابة الساعة يرسم منظر الواجهة البحرية. بينما أمضت شارلوت الوقت في تجوال حول المدينة تلقي نظرة على المتاجر العديدة الجديدة التي فتحت بعد رحيلها.

وخطر لها وهي تعنى بوجهها استعداداً للأمسية: بعد الغد سيكون ليام هنا.

وقال لها بن عندما لحقت به الى البار:

«أود أن أقضي نهار الغد أرسم صورة لك... اذا كان ذلك يناسبك».

ووافقت قائلة:

«لا مانع».

وقال وهما عل وشك الانتهاء من العشاء:

«يبدو عليك شيء من التغيير.. وهناك ومضة جديدة أراها فيك اليوم».

«حقاً؟ ربما كان ذلك من أثر الشمس! وأنا أحب أن تصبغ بشرتي»

وعلّق يقول:

«ولكني أشك في استعدادي للعيش في هذا المناخ، انني لا أشعر بالحيوية».

«أما أنا فالطقس البارد هو الذي يجعلني كسولاً، وهنا أصحو مع الفجر وأظل يقظة حتى منتصف الليل، وطاقتي تتضاعف، وربما هذا هو السبب...»

وجاء صوت ليام هاملتون يقول:

«اسعدتما مساء!»

رفعت شارلوت بصرها ورأت ليام يقف الى جوار المائدة يرقبها بتعبير لا تفهم كنهه. انه التعبير الذي بدا عل وجهه وهو يودعها منذ أربع سنوات. وأحسّت كأن العالم يتأرجح من حولها، وسأل وهو يلتفت الى بن:

«السيد بالمر؟ والآنسة مانيارد؟»

ونهض الأمريكي يقول:

«نعم».

«انا هاملتون صاحب الفندق. اتمنى أن تكون الخدمة بالدرجة اللائقة من العناية، وأن ترضي جزيرة مانغو توقعاتكما».

«اننا نستمتع بوقتنا الى حدّ بعيد».

«هل تأذنان بأن أجلس معكما لحظة؟»

«بكل سرور»

كان بن عل وشك أن يشير الى الخادم ولكن الرجل الآخر أوقفه وأعطى أمراً

بصوت خافت.

وقال بن:

«لا أظن أنني رأيتك من قبل يا سيد هاملتون».

«لا... كنت في باربادوس، ووصلت منذ أقل من ساعة، وقيل لي يا آنسة مانيارد أنك تريدين أن تتحدثي إليّ».

قالت بصوت أبح:

«نعم... نعم».

وقال بن اذ لاحظ اضطراب صوتها:

«أأنت بخير يا كلير؟»

ونظرت الى ليام وهي لا تستطيع أن تحول بصرها عنه، وواصلت تقول:

«اسمي ليس كلير يا بن، اسمي شارلوت، شارلوت مارتن، وآسفة لأنني خدعتك خدعة بريئة، أردت أن أعمل مفاجأة للسيد هاملتون، فقد تقابلنا من قبل، ولكن المفاجأة ردّت إليّ».

ووجّهت الكلام الى ليام تقول:

«قالوا انك سوف تتغيّب حتى الجمعة».

«استطعت العودة قبل ما توقعت، كيف حالك؟»

«انا بخير.. وكيف حالك أنت؟»

«بخير تام! وكيف حال الأسرة؟ هل هم جميعاً بخير؟»

«نعم...شكراً».

ووجّه ليام الحديث الى بن:

«كانت الآنسة مارتن وأسرتها تعيش هنا في يوم من الأيام، وربما حدثتك بذلك».

كان بن لا يزال يعاني من اختلاط الأمر، وقال:

«عرفت أنها كانت هنا من قبل».

وأحضر الخادم المشروبات التي أمر بها ليام له ولضيفه ورفع ليام كأسه يقول:

«في صحتكما».

وتمتم بن بإجابة... أما شارلوت فلم تقل شيئاً وعجبت كيف أن يدها لم تكن ترتعش وهي ترفع الكأس بينما كان جسمها كله يرتعش من الداخل.

وسأل ليام بالمر:

«هل جرّبت أياً من رياضات الصيد، يا سيد بالمر؟ أم أنك تفضّل إجازة فيها شيء من الاسترخاء؟»

«لا، أقصد نعم، ولكن أعتقد أن لديكما الكثير لتتحدّثا عنه. فاعذراني!»

ونظر ليام الى ساعته، وقال:

«لا، أنا من يجب أن ينصرف، قطعت عليكما الجلسة، وهناك مسائل كبيرة تحتاج الى عنايتي بصفة عاجلة، سيكون بوسعي أنا والآنسة مارتن أن نتحدث فيما بعد، أسعدت مساء يا سيد بالمر!»

ونهض ومدّ يده مصافحاً. وانحنى لشارلوت، ومدّت يدها، فقد أحسّت أنها بحاجة الى أن تمس يده لتقنع نفسها أنه هو الذي كان هناك حقاً. كانت قبضته لا تزال قوية، لم يتغيّر فيه شيء على الاطلاق، كان شكله كما عرفته طويل القامة ذا بشرة نحاسية، ازرق العينين. وبالنسبة لها أقوى الرجال جاذبية على الأرض.

وبقي بن بعد أن تركهما ليام عدة لحظات واقفاً... وحاولت شارلوت أن تجبر نفسها على أن تدرس ردّ الفعل لديه في الدقائق القليلة الماضية ومسّت بيدها كمه تقول:

«أسفة أن كذبت عليك يا بن... اقتنعت الآن أنني كنت على درجة كبيرة من الغباء عندما استخدمت اسماً مستعاراً»

وجلس وقال:

«لا يهم... لا تشغلي بالك يا... يا شارلوت!»

وابتسم وقال:

«سيمضي بعض الوقت قبل أن أتعود على ندائك باسمك... شارلوت!»

«أنا مندهشة أنك ما زلت تتحدث إليّ».

«أوه! لا تقولي ذلك... فأنا واثق أنه كان لديك من الأسباب مما جعلك تفعلين ذلك،

وأعترف أن الموقف يحيرني الى حد ما. فعندما ظهر هاملتون بدا عليك الاضطراب، ولكنه كان يتصرف ببرود تام».

«نعم، كان بارداً، أليس كذلك؟ شديد البرودة».

وقمتمت:

«آنسة مارتن وأنا يمكن أن نتحدث فيما بعد!»

وقال بن:

«لا أود أن أكون متطفلاً، ولكن لدي إحساس بأنه من المفيد أن تتكلمي... أعتقد أنك تحبين ذلك الرجل»

وسألته مذعورة:

«هل بدا عليّ ذلك؟»

«لا... ولكن بدا أنك أخذت بالمفاجأة لبعض الوقت».

«هل نذهب الى مكان نحس فيه بأننا أكثر حرية؟ أحسّ أن الضوضاء زائدة في هذا المكان الليلة»

«بالتأكيد... ما رأيك في الشرفة الخارجية؟»

وجلسا على كرسي هزاز عند طرف الشرفة الخارجية، وكان لا يزال بوسعهما أن يسمعا ولكن بدرجة خافتة وقال بن:

«من حسن الحظ أن هاملتون عاد في وقت أبكر مما يتوقع، ولا بد أنك أحسست بالصدمة عندما لم تجديه هنا».

«نعم، كان ذلك إحساسي».

«من حسن حظك».

«قد يحدث الكثير في يومين... فلو لم يعد يوم الجمعة ربما كنت قد وقعت في حبك».

«أوه يا بن في خمسة أيام...»

«أعرف... ولكني أحس بالوحدة... وأنت جميلة، وهذا المكان تلتهب فيه العواطف، وفي أي حال أوضحت منذ البداية أنك مشغولة بشكل ما. فلو حدث ذلك لما كانت غلطتك. أعتقد أن كثيرين من الرجال قد يقعون في حبك يا شارلوت

لو أنك شجعتهم على ذلك، انك شخصية تحب. وليس لهذا علاقة بمظهرك، فالعنصر الهام لديك هو شخصيتك، وإذا كنت قد أحببت هاملتون وهو لا يبادلك الشعور نفسه فلا بد أن في عقله خللاً».

ولما لم تجب واصل يقول:

«وربما هو مهتم بك بالفعل، ولكنه مرتبط هل هذه المشكلة؟»

«أوه! لا، لا شيء من هذا، ليام غير مرتبط بأحد».

ووجدت نفسها للمرّة الثانية في أسبوع واحد تحكي ما حكته لأنيتا بعد أن ظلّت صامتة لسنوات.

وعلّق بن:

«فهمت، وبعد أن قابلته الآن، ألا تزالين تحسين بالشعور نفسه؟ ألم يتغيّر عن صورته التي في ذاكرتك؟»

«انه هو هو تماماً... ولكنه لم يبق معنا سوى دقائق قليلة، وربما يكون قد تغيّر وربما عندما أتكلّم معه...»

وتوقفت ثم واصلت تقول:

«ولكنه لم يكن شديد الحماس للكلام معي...أليس كذلك؟»

«كلا، ولكن للحق فانك أنت ايضاً لم تظهري حماساً كبيراً. ولم توضحي له أنك كنت معي فقط لتمضية الوقت حتى يعود، لو كنت في مكانه ووجدت فتاتي التي لم أرها لأربع سنوات تتناول عشاء مع شخص آخر... لتسربت اليّ الشكوك».

ونهض يقول:

«وزيادة على ذلك، لا أعتقد أننا ينبغي أن نبقى هنا لفترة أطول... فقد نوحي الى الآخرين بما فيهم هاملتون بانطباع غير حقيقي، وربما هو يتحين الفرصة الآن ليجدك وحدك. هيّا بنا الى الداخل! ولنودّع بعضنا بعضاً على مرأى من الآخرين وبعدها أذهب الى غرفتي لأكتب بعض الرسائل... وبوسعك أن تجلسي في قاعة الانتظار قليلاً. ولا أعتقد أنك ستبقين وحدك لفترة طويلة».

وسألته شارلوت:

«هل أنت واثق من ذلك؟»

«أنا واثق»

ولكنه كان مخطئاً... اذ جلست شارلوت وحدها قرابة ساعة في قاعة الانتظار تصلي كي يظهر ليام ثانية ولكنه لم يفعل. وصعدت الدرج بفتور وهي تعرف أنها لن تجد سبيلها الى النوم وأنها في صبيحة اليوم التالي سوف تصحو منهكة وعلى غير استعداد لمقابلة أكثر فشلاً معه.

وفكّرت: كان جنوناً أن أفكّر في العودة؟ لماذا لا أستطيع أن أنسى ليام وأحب شخصاً آخر مثل بن ؟

وعندما دخلت غرفتها وأشعلت الضوء، وجدت مظروفاً في غرفتها. هل هي رسالة من بن؟ وخلعت رداءها وعلّقته، واسترخت في كرسيها قبل أن تفتح الرسالة لتقرأ:

«أتسمحين بأن نأخذ الافطار معاً في الثامنة صباح الغد في كوخ الدولفين»

وكانت الرسالة موقّعة بالحرف الأول ـ «ل»

٨ ـ «يا له من يوم طال نهاره... ولكم أشتاق العودة الى البيت»

«من أغنيات عمال المزرعة»

وبذلت شارلوت جهداً كبيراً لتتأخر عمداً بضع دقائق عن موعد الافطار مع ليام... كانت تمشي على مهل في طريقها الى كوخ دولفين، مع انها ظلت تنتظر ذلك منذ الشروق بفارغ الصبر ثم بذلت ثيابها أكثر من مرّة لتبدو كأبهى ما تكون عند اللقاء. وانفتح باب الكوخ الخشبي على الفور عندما نقرته وأشار ليام اليها بالدخول وعظامها تذوب تحت نظراته. قادها من غرفة الجلوس الى ممرّ صغير تظلله أشجار الكروم يطلّ بزاوية مائلة على الشاطىء الصغير.

واختفى في الداخل لحظة بعد أن أجلسها حول منضدة زجاجية مستديرة، وعاد ومعه إناءان بهما شرائح الكريب فروت وإناء آخر كبير ملىء بالقهوة. وجلس على الطرف المقابل من المنضدة. يقول:

«إذن رجعت يا شارلوت... هل وراء الزيارة سبب خاص؟»

وغمست ملعقتها في الفاكهة الطازجة قائلة:

«جئت أقضي العطلة وأستطلع حال المكان... كدت ألا أعرفه بعدما أدخل عليه من تغييرات، لكنك كما قالت فيوليت: تشقى كثيراً وتعطي وقتك للعمل ولا تجد فرصة للمتعة هل أصبحت حقاً من ملوك المال؟»

«أشقى الى حدّما... وأجد لذة عندما أبني من لا شيء... وأنت تعيشين في لندن على ما أعتقد؟ هل تحبين الحياة هناك؟»

«هناك الأعمال المحترمة والأعلام من الناس وأفضل المتاجر والمعارض، وحفلات الموسيقى».

«ولكن، ما عملك بالضبط؟»

«مديرة أعمال لرئيس إحدى الشركات العالمية للبلاستيك».

«صرت في غاية الأناقة وتبدين وكأنك عارضة ازياء!»

«أشكرك... لعلّي صرت أفضل حالا مما كنت عندما رحلت من هنا وبذا قادرة على اقتحام الحياة. كان شعري كعرف فرس بري وكانت عيناي حمراوين من الغطس».

«كم من الوقت تقيمين هنا؟»

«تسعة أيام أخرى».

«هل تواصلين إجازتك في مكان آخر؟»

«كلا... سأعود الى لندن».

وقال وهو يقدّم إليها سلّة الخبز:

«رحلة طويلة ومكلفة لأسبوعين فقط! لابد أنك تتقاضين راتباً مغرياً».

وقالت في شيء من اللامبالاة:

«طبعاً... أشكرك فأنا لا أفطر الآن... فقط قهوة بدون حليب من فضلك».

ونظرت الى شجرة الكرمة التي تلقي ظلالها المرقشة على الفناء وقالت:

«لم أتعود بعد على جدّة المكان... هذه الأرض... كانت بريّة في يوم من الأيام».

ووقعت عيناها عليه، وقالت:

«يبدو أنك متوتر بعض الشيء يا ليام. هل تخليت عن شبابك المرح وأصبحت تفضل شؤون العمل على الحب؟ أتذكر بالرعب تصريحي المخجل وأنا في الثامنة عشرة من عمري؟»

«نعم أذكر ولكن بدون رعب».

واحتست قهوتها، وواصلت تقول:

«كثيراً ما فكرت فيا كان سيصيبك لو أنني استجبت لا غوائك في تلك الليلة».

«اغوائي؟»

«نعم... إنك لم تنس بالتأكيد... ماذا كنت تفعل لو أنني قبلت عرضك وذهبت معك الى غرفتك؟»

وقال في لهجة مقتضبة:

«لا أعرف! لماذا رجعت يا شارلوت؟»

«قلت لك... لأقضي الاجازة... ولأجدد صلتي بأصدقائي القدامى... ولكن أحدهم ليس مسروراً لرؤيتي».

وعلّق قائلاً:

«أنا... مسرور بالطبع... ولكنك تغيرّت كثيراً، وليس من السهل أن تلتقط الخيوط بعد الغيبة الطويلة، هل تخرجين في إجازاتك باسم مستعار دائماً؟»

«أردت أن أجعلها مفاجأة لك».

«بينما أنا الذي فاجأتك... وأرجو ألا أكون قد سببت لك أي مشكلة. في الليلة الماضية».

«على الاطلاق... ولماذا تظن ذلك؟»

«أحسست بشيء من الضيق في سلوك بالمر».

«لقد تخيّلت شيئاً لا وجود له... فليس هناك شيء بيننا ولم أتعرف به إلا منذ بضعة أيام ولمعلوماتك فان بن بالمر لم يشف تماماً من الأزمة التي يعيشها بسبب فقد زوجته ثم أنني لا أبحث عن إجازة غرامية».

ونظر الى يدها اليسرى، وقال:

«أرى أنك لم تتزوجي أو تخطبي بعد... أم أن عدم وجود الخاتم مسألة مقصودة؟»

«كلا... فأنا ما زلت حرة».

«ربما لا تريدين الزواج... كما تفعل فتيات كثيرات الآن».

«لا ينبغي أن تصدق كل ما يقال عن المجتمع المنحلّ، ربما ينطبق ذلك على قلة من الناس ولكن ليس على الغالبية».

كانت المحادثة ينقصها الحماس وبعد صمت دام لفترة قالت شارلوت:

«حسناً... لاشك أن لديك أعمالا تستحق اهتمامك أكثر من الحديث عن الماضي... ومن الأفضل أن أتركك لتهتم بها».

ونهضا ولكن شيئاً لمع في عينيه الزرقاوين القاتمتين وتوقعت أن يقول: «ليذهب العمل الى الشيطان! سأمضي اليوم معك». لكنه بدلاً من ذلك قال: «يجب أن نتحادث ثانية في وقت آخر».

وهرولت شارلوت الى المبنى الرئيسي تفكر محمومة: «لماذا أعيش على الأمل حتى الآن؟ انه لم يحبني ولن يحبني».

واعترض البواب طريقها، وسلمها رسالة مغلقة قائلاً:

«ترك السيد بالمر هذه الرسالة لك يا سيدتي».

«أشكرك».

وفضّت الرسالة. وقرأت عليها بخط بن الواضح الجميل:

«عزيزتي ـ غادرت الفندق وأنا أقاوم رغبتي في أن أودعك شخصياً. وعندما تصلك هذه الرسالة اتمنى أن يكون قد تمّ إصلاح كل ما بينك وبين هاملتون، حظاً سعيداً يا شارلوت. وشكراً على الذكريات الجميلة الغالية... المحب: بن».

كان بن غادر الفندق بالفعل وعبثاً حاولت أن تتصل به.

وصعدت الدرج منهكة كأنها كانت تختتم يومها مع أن الوقت لا يزال في الصباح... ووقفت أمام باب الغرفة تبحث عن المفتاح ودموع اليأس على وجنتيها. وفاجأتها فيوليت تقول:

«صباح الخير يا حبيبتي، هل نمت نوماً هادئاً؟»

«أهلاً يا فيوليت... معذرة فاتني على عجل».

وفتحت الباب لتختفي عن الأنظار آملة ألا تكون فيوليت قد لاحظت بكاءها.

ودقّ جرس التليفون في غرفة شارلوت بعد أن دخلتها بعشر دقائق. وكانت قد خلعت سترتها البيضاء وألقت بها على أرض الغرفة ودفنت وجهها في الفراش. وظلّ الجرس يدق لمدة دقيقة، فرفعت وجهها الذي أنهكه البكاء وتحسست سماعة التليفون، وقالت:

«نعم».

«شارلوت! هل أنت بخير؟»

كان المتحدث ليام. ولما لم تجبه على الفور واصل قائلاً:

«رأتك فيوليت تندفعين الى غرفتك باكية... طمئنيني!»

«كان في عيني رمش... وخرج الآن».

«اذن... آسف للانزعاج!»

ووضعت شارلوت السماعة واستسلمت لموجة أخرى من الأسى والشقاء. وذعرت بعد ذلك بدقائق عندما سمعت مفتاحاً يدور على عجل في قفل باب جناحها من الخارج، وحنقت لتلك الجرأة وتوقعت أن تظهر فيوليت على باب غرفة النوم ولكنه كان ليام. وكان أول ما قاله:

«انك تبكين!»

كان الغضب قد بلغ بشارلوت مبلغه حتى أنها لم تفكر ستر جسمها وعلى كل فان ملابسها الداخلية، لا تقل حشمة عن رداء البحر، وانفجرت تقول:

«كيف تجرؤ على الدخول؟ فقط لأنك...»

وتلعثمت ولم تستطع أن تكمل... فقد احتواها بين ذراعيه وعانقها... كأنما الزمن عاد أدراجه أربع سنوات الى تلك الليلة التي لا تنسى قبل نفيها عن الجزيرة. لكن الأمر مختلفاً تماماً. لم تعد امرأة طفلة كما كان ينظر اليها بل اختبر الزمن مشاعرها وتحقق من أنها مشاعر دائمة.

ولم يقل ليام في هذه المرة ما قاله في المرة السابقة: «هيا نذهب الى الغرفة!» لكنه قال:

«يا إلهي... لو عرفت كيف افتقدتك!»

وظل العناق بطريقة تعبر عن الشوق العاطفي الذي سبب لها القلق منذ زمن بعيد، واستجابت هذه المرة بكل عواطفها، ثم قال لها:

«أنت أيتها البلهاء الصغيرة! لقد كنت على حق، فهل كنت تعودين الى انكلترا بدون أن تجعليني أتأكد من أنك لم تتغيري؟»

«وكيف كان لي أن أعرف أنك أنت تغيرت؟»

«أنا! لقد أحببتك دائماً... حتى في تلك الليلة التي لجأت فيها الى كل الطرق لأجعلك تكرهينني!»

«أحقاً كنت تحبني دائماً».

«من اليوم الذي حضرت لتقابليني على اليخت... تمنيت أن أكون فتى في العشرين لأصير فتاك».

«ولماذا تركتني أمضي؟»

«يا عزيزتي... والدتك كانت تعجب بي ولكنها كانت تعرف ماضي فخشيت ألا توافق على زواجنا».

وواصل يقول:

«لا أستطيع أن أصدقك... كنت في الليلة الماضية وفي هذا الصباح تنظرين اليّ ببرود لدرجة أنني أحسست أنك رجعت خصيصاً لتثأري مني».

«لم يكن برود يا ليام! كان توتراً فلم يكن باستطاعتي أن أعرف ما يدور في رأسك!»

«حتى الآن؟»

«الآن... نعم... حتى تبوح لي بكل شيء».

وهمّ بعناقها ولكنه تصلب وابتعد عنها فجأة، وقال:

«لا زال بيننا حاجز يا شارلوت... ليس من حقي أن أطلب اليك أن تكوني زوجتي».

«ولم لا؟»

«استري نفسك أولاً! وسأنتظرك في غرفة الجلوس».

وغسلت وجهها وليست قفطاناً طويلاً ولحقت به هناك... فقال:

«تذكرين القصة التي سمعتها من المرأة العجوز التي كانت تعمل لدى أسرة سوليفان؟ طبقاً لرواية تلك المرأة فان شون سوليفان كان وحشاً فظاً عامل زوجته بطريقة شاذّة وأصيب في النهاية بنوع من الاهتياج وقتلها».

«أليس هذا صحيحاً؟»

وهزّ رأسه قائلاً:

«قتلها حقاً ثم أطلق الرصاص على نفسه ولكن باقي القصة كان عكس ما سمعت تماماً فانه لم يكن رجلاً هرماً... وكان فارق السن بين الزوجين أقل مما هو

بينك وبيني، ولم تجبر روزالين على الزواج منه. واشترى الجزيرة ليحقق لها احدى نزواتها لتبني بيتاً هنا. وأما عن القول بأنها تزوجته لتنقذ أسرتها من الأفلاس فهو هراء، فلم يكن أهلها ملاك أرض جار عليهم الزمن، وكان أبوها موظفاً عادياً في مكتب الخارجية».

وعلّقت شارلوت:

«انك تتحدث كما لو كنت تكرهها».

«كنت أحس تجاهها بأكثر من الكراهية... ولم أشعر نحوها بحب وقد تصدمين بهذا، فليس من الطبيعي أن يكره الابن أمه».

وواصل يقول:

«أحببت سوليفان لأنه عاملني كأب ولكنني غير متأكد مما إذا كان حقاً أبي... وسيظل هذا سرّاً».

«سرّ... لماذا؟ ماذا تعني؟»

«لقد قتل سوليفان روزالين لأنها بعد أن جعلت حياته جحيماً ذهبت معه الى حد لا يمكن أن يحتمل... لم يفقد أعصابه بالمعنى العادي. ولكنني أعتقد أنه أصيب بحالة فقدان للوعي. فقد قالت له في تلك الليلة شيئاً لا يحتمل أفقده كل سيطرة على نفسه، قالت انني لست ابنه، فاستجاب لغريزة عمياء دفعته الى أن يوقفها حتى لا تكرر ما قالته».

«ولكن، هل سمعت ذلك بنفسك؟»

«نعم!»

«أوه! ليام... يا حبيبي!»

واقتربت منه وتركت ذراعيها يلتفان حوله.

وأزاحها في رقة وهو يقول:

«لم أقل هذا لأكسب عطفك يا شارلوت... ولكن لأجعلك تعرفين مدى المخاطرة اذا ما قبلت الزواج مني».

«أية مخاطرة؟ عن أي شيء تتحدث؟»

«لو كان سوليفان أبي فانني ابن قاتل... وإذا لم يكن أبي فانني متهم في

نسبي... والشيء الوحيد الثابت أن أمي كانت امرأة سيئة الخلق».

«لا أتصوّر يا ليام أن يتحدث رجل في مثل ذكائك بالطريقة التي تتحدث بها السيدات المسنّات عن الخزعبلات... من ذلك الذي يعير الوراثة ذرة من الاهتمام؟ اذا لم تنجب أطفالاً فانك لن تعترض ولا شك على تبني أحد الأطفال... لماذا تشغل نفسك بأصل أبويك؟ الانسان ليس نتاجاً للخصائص الموروثة فقط.. وإلا لكان أبناء العباقرة، ولكان الأغنياء ينجبون دائماً أغنياء... بل العكس قد يحدث، كما يحدث أن يتحوّل طفل من أسرة شريفة كادحة الى خائن متشرّد».

«انك تنسين شيئاً»

«وما هو؟»

«حتى لو كانت الوراثة لا تؤرقك... فان سجل حياتي لا يستحق الاعجاب».

وقالت في جدية:

«رغم ملابسات طفولتك فانك تستمتع بالاستقرار النفسي... عمري الآن اثنتان وعشرون سنة يا ليام، وأعرف أن أفكر وأن أقرر من هو الرجل الذي أريد أن أتزوجه».

«نعم... مررت بخبرات لا بأس بها ولابد أن أعترف بأنني عندما سمعت بذهابك للحياة في لندن كنت لشهور أضطجع يقظا في الليل أنظر الى صورتك التي أحتفظ بها وأفكر كم من الرجال يحاولون غوايتك؟»

«ولكن إذا كنت قد استطعت مقاومتك وأنت الشخص الذي أحب... هل كان من السهل أن أستسلم لغيرك؟»

«كنت أخشى أن تتحرري لدرجة لا تهتمين فيها بما تفعلين».

«لم أكن أعرف أن لديك صورة فوتوغرافية لي».

«انها الصورة التي التقطها ريكاردو تورتيل... والتي جعلتك تبدين أكبر سناً مما كنت اذ ذاك».

«كنت دائماً تبدو فظاً معي... وذات مرة كنت تنام نوماً خفيفاً على الشاطىء فأيقظتك وكنت حنقاً».

«كنت أحلم بك كامرأة ناضجة وبأنني أتذوق الحب معك... والآن كبرت

بالفعل... وبوسعنا ذلك».

واحتواها بذراعيه. وأغلقت شارلوت عينيها... وهي تفكر في سعادة أنه سيكون عليها أن ترسل عددا من البرقيات... ونسيت بعد ذلك كل الاعتبارات العملية واستسلمت لشعورها بفيض من السعادة... السعادة لأنها ستصبح زوجة ليام أخيراً!